ليون تولستوي

الشيطان

فريق متميزون
E-BOOK

عليسة
عليسة للنشر

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الشيطان

ليو تولستوي

ترجمة: صياح الجهيم

عن الرواية..

لهذه القصة أيضاً طابع السيرة الذاتية، كما يشهد بذلك اسم البطل الرئيسي - إيرتينييف - الذي يُعيدنا إلى (الطفولة). لقد كان لمؤلف آنا كارينين علاقة بفلاحة شابة في إياسنايا بوليانا قبل زواجه بالضبط، كما اعترف بذلك، ذات يوم لصديقه وكاتب سيرته (بول بيريوكوف). وكانت هذه المغامرة تبهظ بثقلها ضميره، وهو يتحدّث عنها بشيء من الحدّة بعد سنوات طوال، لأنه يهبها نهاية فاجعةً، على المستوى الأدبي: ففي رواية النص المطبوعة ينتحر (إيرتينييف)، وفي رواية أخرى للنص، ما تزال مخطوطةً، يقتل حبيبته، إن الشهوة الجسدية وسحرها هي ما يهاجمه تولستوي؛ ولا نَنْس أننا في حقبة (السونات لكروتزر).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(أمّا أنا فأقولُ لكُم: مَنْ نظَرَ إلى اَمرأةٍ لِيَشتَهيَها، زَنى بِها في قلبِهِ. فإذا جَعَلَتْكَ عَينُك اليُمنَى تَخْطَأ، فاَقلَعْها وألْقِها عَنكَ، لأنّهُ خَيرٌ لكَ أنْ تَفقِدَ عُضوًا مِنْ أعضائِكَ ولا يُلقَى جَسدُكَ كُلّهُ في جَهَنّمَ. وَإِنْ كَانَتْ يَدُكَ الْيُمْنَى تُعْثِرُكَ فَاقْطَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ، لأَنَّهُ خَيْرٌ لَكَ أَنْ يَهْلِكَ أَحَدُ أَعْضَائِكَ وَلاَ يُلْقَى جَسَدُكَ كُلُّهُ فِي جَهَنَّمَ).

(متى 5: 28-30) ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

–1–

كان يستطيع (أوجين ايرنينييف) أن يؤمِّل في مركز مرموق. كان يملك كلَّ شيء من أجل ذلك: لقد عني ذووه بتربيته عناية حسنة، وقد أنهى بنجاح باهر دراسته في كلية الحقوق في بطرسبرج، وكان له بواسطة أبيه الذي مات حديثاً، علاقات بأرقى فئات المجتمع حتى إنه دخل الوزارة برعاية الوزير نفسه، كانت لديه أيضاً ثروة عظيمة، لكنها كانت معرضة للخطر. لقد عاش الأب في الخارج وفي بطرسبرج، وكان يخصص لكل من ولديه (أوجين)، والبكر (أندريه)، وهو ضابط في حرس الفرسان، معاشاً سنوياً مقداره 6000 روبل، وكان هو وامرأته ينفقان بسعة. كان يأتي في الصيف ليقضي شهرين في الريف، لكنه لم يكن يُعنى باستغلال أرضه، وكان يوكل أمرها إلى مدير أعماله المتخم الذي لم يكن هو أيضاً يُعنى بها كثيراً، لكن سيده قد منحه ثقة كاملة.

عندما مات الأبُ وعمد الوالدان إلى تصفية الإرث، تبين أن ديوناً كثيرة كانت تثُقل الإرث حتى أن المحامي نصحهما بأن يحتفظا فقط بملكية جدتهما التي تُقدَّر بمئة ألف روبل، وأن يتخليا عن الإرث. لكن جاراً ريفياً، وهو ملّاك أيضاً كانت له صلات عمل مع العجوز ارتينييف، أي أنه كان بحوزته سند لأمره من العجوز، وقد جاء من بطرسبرج لهذه الغاية، أفهمهما أنهما يستطيعان أن يتخلّصا من الديون وأن يبنيا ثروةً عظيمة، كان يجب لأجل ذلك بيع الغابة وبضع قطع من الأراضي البور مع الاحتفاظ بالأساسي، وهو منجم ذهب، أي أملاك (سيميونوفسكوي) ذات الـ4000 هكتار، ومصفاة و 2000 هكتار من المراعي الخصبة، لكن لا بدّ للنجاح، من التفرّغ التام لهذه المهمة والإقامة في الريف، والإدارة بذكاء وتدبير.

قصد (أوجين) أملاكه في الربيع (كان الأب قد مات في الصوم الكبير)، وبعد تفتيش دقيق صمم أن يقدم استقالته، وأن يقيم مع أمه في الريف ليستثمر بنفسه الأملاك الرئيسية. أما أخوه الذي لم يكن على وجه الدقة صديقاً له، فقد سوى الأمور معه على النحو التالي: تعهّد بدفع 4000 روبل سنوياً أو أن يعطيه 8000 روبل دفعة واحدة، وعلى هذا الأساس يتخلّى الأخ عن حصته في الإرث.

وهذا ما جرى. فما إن استقر هو وأمه في البيت الكبير، حتى أخذ يستغل أملاكه بحماسة وبحذر في آن واحد. يظنّ الناسُ عادةً أن الشيوخ هم المحافظون الجامدون وأن الشباب هم المجدّدون. ليس هذا صحيحاً تماماً. فالمحافظون هم عادةً شبابٌ يشتهون أن يعيشوا، لكنهم لا يفكرون وليس

لديهم وقت للتفكير في الطريقة التي يجب أن يعيشوا بموجبها، ولهذا السبب يتخذون الحياة كما هي نموذجاً لهم.

تلك كانت حال (أوجين)، لقد كان حلمه، مثله الأعلى، منذ أن أخذ يعيش في الريف، أن يستعيد لا نمطَ الحياة في زمن أبيه (كان أبوه ملّاكاً سيئاً) بل نمط الحياة في زمن جدّه. ففي البيت والحديقة وفي جميع أملاكه بطبيعة الحال، سعى إلى أن يبتعث الروح العامة لذلك الزمن، مع بعض التعديلات التي فرضها الزمن، ليرى رضا الجميع والنظام والرفاهية تسود من حوله. كان عليه الكثير من العمل. كان لا بدّ من إرضاء مطالب الدائنين والمصرف، ومن أجل ذلك كان لا بدّ من بيع الأراضي، وتأجيل الاستحقاق ولا بدّ فضلاً عن ذلك من تأمين المال للاستثمار، بالزارعة حيناً، أو باستثمار أراضي أملاك (سيميونوفسكوي) الواسعة المحروقة ومصفاتها، على أيدي خدمه. كان لا بدّ من العمل بحيث لا يبدو البيت والحديقة مهملين، خربين.

كانت المهمة عسيرة، لكن أوجين كان مملوءاً بالقوى الجسدية والمعنوية. كان عمره ستة وعشرين عاماً، وكان متوسط القامة، ذا بنية قوية، وعضلات نمَّتها الرياضة، وكان دموياً، وجنتاه ملوّنتان، أسنانه وشفتاه لامعة، شعره غير كثيف لكنه ناعم وجعد. كان عيبه الوحيد قصرَ نظره وقد زادته النظارة وضوحاً فحفرت أثرها على كل من جانبي الأنف. هذا جسدياً، أما معنوياً، فقد كان إنساناً كلما عرفتَه ازددت حبّاً به. وقد آثرته أمُه دائماً ، ومنذ موت زوجها، لم تحوِّل إليه كل حنانها فحسب، بل ركّزت فيه كلَّ حياتها، ولم تكن أمه وحدها تحبه هذا الحب. إن رفاقه في المعهد والجامعة هم أيضاً لم يكونوا يحبونه حبّاً خاصاً فحسب، بل كانوا يقدِّرونه أيضاً. وكان يترك في جميع الغرباء الأثر نفسه. لم يكن كلامه موضعاً للشك، لم يكن يتصوّر أحدٌ أنه قادر على الرياء والكذب، وله مثل هذا الوجه المنفتح، الشريف، ومثل هاتين العينين.

على العموم، كان شخصاً يخدمُه الآخرون في أعماله، كان الدائنون يثقون به ويمنحونه ما يمنعونه عن أي إنسان آخر، إن مستخدماً أو قيِّماً أو فلاحاً، قادرين على شيء من النذالة أو الغش نحو الآخرين، كانوا ينسون أن يخدعوه لفرط ما كان ساراً الإحساسُ بعلاقتهم مع رجل بهذا الطيب وتلك الصراحة الخاصة.

ولقد سوّى أوجين في المدينة، بطريقة ما، رَفْعَ الرهن عن أراضيه غير المزروعة وباعها لتاجر، ثم اقترض مالاً من التاجر نفسه، لتجديد خيراته أي الخيل والثيران والعربات، وقبل كل شيء للبدء في بناء ضيعة صغيرة. وأخذت أمورُه تَصْلح. نُقل الخشب وباشر النّجارون عملهم ونُقلت ثمانون نقلة من الزبل، لكن كل شيء مع ذلك كان واهياً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

–2–

في وسط هذه الهموم، وقع لأوجين حادثٌ آلمه كثيراً وإن كان طفيف الأهمية. لقد عاش شبابه كله كما يعيش الشبابُ الأصحّاء، العزّب، أيْ إنه كانت له علاقات مع نساء من جميع الأنواع، لم يكن ماجناً، لكنه لم يكن أيضاً راهباً، كما كان يقول. وكان يعترف أنه كان يلهو بقدر ما كان ذلك ضروريّاً لصحته الجسدية ولحرّيته الفكرية.

بدأ منذ السادسة عشرة، وحتى الآن مرّ كل شيء بسلام، أي أنه لم يستسلم للمجون ولم تستخفّه الحماسة ولم يكن مريضاً قَطُّ. في بطرسبرج، صاحَبَ أولاً خيّاطة لكنها مرضت، فدبّر أمره على نحو آخر، وانتظم كل شيء من هذه الجهة، ولم تصبْ حياتُه بأي اضطراب.

أما في الريف، وبعد إقامة شهرين، فلم يكن يعرف البتّة كيف يدبّر أمره. أخذ التعفّف اللاإرادي يضايقه. هل يجب عليه من أجل ذلك أن يذهب إلى المدينة؟ وأين؟ وكيف؟ كدّره ذلك، وبما أنه كان مقتنعاً بأن ذلك الشيء ضروري له، فقد كان يحس بالحاجة إليه، وكان مشغولاً به وكان بالرغم منه يُلاحق بعينيه كلَّ امرأة شابة.

كان يستنكر أن يرتبط في بيته في الريف بامرأة أو فتاة. كان يعلم، من الحكايات، أن والده وجدَّه كانا يتميّزان من هذه الجهة تميّزاً تاماً عن ملّاكي زمنهم، فلم تكن لهما أية مغامرة غرامية، في البيت مع أقنانهم، فصمّم أن يتصرف كما تصرفوا. لكنه إذ أحسّ فيما بعد أن قلقه يزداد، ثم إذ تصوّر مستفظعاً ما قد يقع له، وأخيراً إذ حدّث نفسه قائلاً: الآن لم يبقَ أقنانٌ، قرّر أنه يستطيع أن يؤمِّن لنفسه امرأةً هنا كما يفعل في أي مكان آخر، لكن بحيث لا يعلم أحد شيئاً من ذلك، لا للمجون، بل من أجل صحته كما كان يقول، وحين أزمع على ذلك، أحسّ بقلق أكبر وعندما كان يتحدّث مع القيِّم، أو مع الفلاحين، أو مع التجار، كان يسوق الحديثَ إلى النساء. فاذا استقرّ الحديث عليهن مدّه بارتياح. أما النساء فقد أخذ ينظر إليهن بانتباه متزايد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

–3–

لكن اتخاذ القرار شيء وتنفيذه شيء آخر. أن يُخاطب امرأةً كان شيئاً مستحيلاً، أية امرأة؟ وأين؟ ينبغي أن يتصرّف بطريق إنسان آخر، بطريق مَنْ؟

حدَثَ مرةً أنه دخل يشرب عند حارس الغابة، وكان الحارس صياداً قديماً لأبيه. أخذ أوجين ايرتينييف يحادثه. روى له الحارس قصصاً قديمة عن حفلات الزواج ورحلات الصيد، وفكّر: (أوجين ايرتينييف) على الفور أن من الملائم أن يرتّب شيئاً هنا، في كوخ الحارس، وسط الغابة. لكنه لم يكن يعلم كيف ينظر دانيلو العجوز إلى هذا الشيء. (لعله سيغتاظ من مثل هذا العَرْض، وسوف أخجل... لكنه ربما قبل بكل بساطة) هكذا كان يفكر وهو يصغي إلى العجوز دانيلو، وكان هذا يروي كيف أنه جاء ذات مرة بامرأة إلى بريانيتسنيكوف.

فكّر (أوجين): (يمكن أن أجازف بنفسي).

- كان أبوك، لتكنْ له مملكةُ السماء، لا يهتم بهذه الحماقات... قال (أوجين) في نفسه: (لا يمكن)، لكنه قال لكي يجسّ النَبضَ:

- وكيف كنت تهتم بهذه الأمور الحقيرة؟

- باه! أين السوءُ في ذلك؟ كانت مسرورة، وكذلك (فيدور زاكاريتش) كان مسروراً جدّاً أيضاً، وكان يعطيني روبلاً. كيف نستطيع أن نفعل غير ذلك؟ إنه كائن حي، على كل حال وهو يشرب خمراً... فكرَ أوجين: (نعم، يمكن أن أكلمّه)، وفي الحال بدأ كلامه:

- أتعلم، يا دانيلو (وأحسّ بحمرة الخجل حتى أذنيه) أنني فقدت صبري! (ابتسم دانيلو) لستُ راهباً، على كل حال، فلي عاداتي... كان يحسّ أن كلماته غبية، لكنه كان مسروراً لأن دانيلو كان يوافقه.

- ماذا كان ينبغي أن تقول ذلك منذ زمن بعيد. هذا ممكن، قلْ فقط، أيهّن تريد؟

- أوه! لا فرق عندي أيّاً كانت على ألا تكون بشعة جدّاً وأن تكون معافاة.

قال دانيلو:

- مفهوم. أوه! عندي طريدةٌ بديعة - احمرّ أوجين مرة أخرى - حلوة جدّاً، تزوجت منذ الخريف فقط.

همس دانيلو شيئاً لأوجين، فاحمرّ خجلاً وقطب بين حاجبيه.

وقال:

- لا، لا، ليس هذا ما يلزمني. أُفضِّل العكس. (أيَّ عكس يمكن أن يكون المقصود؟) يلزمني العكسُ تماماً، على أن تكون معافاة وأقل مشاكل، امرأة جندي أو شيء من هذا القبيل.

- مفهوم. (ستيبلنديا) هي التي تلزمك، زوجها يعمل في المدينة، هي بالضبط مثل زوجة الجندي. وهي امرأة جميلة، ونظيفة جدّاً، ستكون مسروراً. قلت لها مرة: (تعالي، وهي...).

- متى إذن؟

- غداً إذا شئتَ. سأذهبُ لأُحضر تبغاً، وسأمرُّ ببيتها، تعال إلي هنا ظهراً، أو إلى البستان قرب الحمّام، في هذا الوقت يكون المكان خالياً من الناس، لأنهم يكونون في القيلولة، بعد الغداء. حسنٌ.

استولى على (أوجين) انفعالٌ غير عادي وهو راجع إلى بيته. ماذا سينجم عن ذلك؟ ما الفلّاحة؟ مخلوق كريه، منفّر؟ وقال في نفسه وهو يتذكر اللواتي اجتذبن نظراته: (لا، إنهن جدّ جميلات. ماذا سأقول وماذا سأفعل؟).

أحس بالضيق طوال اليوم، وفي اليوم التالي، ظهراً، قصد بيتَ الحارس. كان دانيلو واقفاً على الباب، بادي الوقار، دون أن يفوه بكلمة، فأومأ برأسه صوب الغابة. تدفقّ الدمُّ إلى قلب أوجين واتجه نحو البستان. لا أحد. فتّش حوالي المكان، وكاد يَنْأى لولا أن سمع فجأة تقصّف غصن مكسور. التفت. كانت هي في أيكة، تصلها حفرة عنه، فوخزتْه قرّاصةٌ لم يلاحظها، وسقطت نظارته لكنه بلغ أخيراً الجانبَ الآخر. كانت امرأةً رَخْصة، جميلة، بقميص أبيض، وتنورة حمراء قائمة، وخمارٍ أحمر فاتح على رأسها، تنتظرُ وتبتسم وهي حافية القدمين.

قالت له:

- الأفضل أن تمرّ بهذا الدرب الضيق.

اقترب منها، وبعد أن ألقى حوله نظرةً دائرية، ضمّها وبعد ربع ساعة افترقا. عثر على نظارته، وعرّج على دانيلو، ورداً على السؤال الذي طرحه عليه دانيلو:

- حسناً، ياسيدي، هل أنت مسرور؟

أعطاه روبلاً واستأنف طريقه إلى البيت. كان مسروراً.

لم يحسّ أولاً إلا بالخجل، ثم زال الخجلُ، وأحسّ بأنه ناعم البال. الشيءَ والحسنُ أنه يحسّ بنفسه الآن خفيفاً، هادئاً، شجاعاً. أما هي فلعلّه لم يرها جيداً، تذكر أنها كانت نظيفة، غضّة، غير بشعة، لا تتكلّف. تساءل: (من هي؟ اسمها "بيتسنيكوف"، لكن هناك أسرتين بهذا الاسم، لعلها كنة ميشيل العجوز. نعم، بالتأكيد. ابنها يعمل في موسكو. سأسأل عن ذلك).

منذ هذا الوقت اختفى ذلك الغمّ الذي كان كبيراً من قبل، من الحياة في الريف، تلك العفة اللاإرادية، وإذ تحرّر اوجين من هذا الهم صار يستطيع أن يُعنى بشؤونه وهو حرّ الفكر. والمهمة التي اضطلع بها أوجين لم تكن يسيرة، كان يبدو له أحياناً أنه ستنقصه القوى الضرورية لإنجاز تلك المهمة، وأنه سيُضطر إلى بيع أملاكه، وأن عمله كله سيذهب هباءً. وما كان يُحزنه قبل كل شيء في هذا الوضع، هو أنه لم يستطع أن ينجز المهمة التي شرع بها. هذا ما كان يعذبه العذاب الأكبر. فما أن يتيسر له أن يسد ثقباً، حتى ينكشف فجأة ثقب آخر.

وفي الوقت نفسه، كان يُفاجأ كل يوم بديون جديدة على أبيه لم تكن معروفة من قبل (ومن الواضح أن الأب قد استدان من حيث أمكنه أن يستدين. وفي لحظة تقسيم الميراث ظنّ أوجين أنه عرف جميع الديون، لكنه بُلغ فجأة، في منتصف الصيف، برسالةٍ، أن هناك ديناً قدره اثنا عشر ألف روبل للأرملة (ايسيبوف). لم يكن هناك سند لأمرها، وإنما كان هناك مجّردُ إيصال قابل للنزاع، حسب قول المحامي. لكن أوجين ما كان يخطُر له أن يرفض دفعَ دين أبيه، لمجرّد أن الوثيقة تفسخ المجال للنقاش، أراد فقط أن يعلم إن كان موضوع الإيصال دينا حقّاً.

سأل أمه أثناء العشاء:

- ماما، مَنْ (ايسيبوف) هذه، (فاليري فلاديميروفنا ايسيبوف؟).

- (ايسيبوف)؟ لكنها القاصرة التي كان جدّك وصياً عليها، لمَ هذا السؤال؟

روى أوجين لأمه قضية الإيصال.

- كيف لا تخجلُ! لقد أعطاها أبوك كثيراً من المال.

- لكن ألم يكن مديناً لها بشيء؟

- يَعْني... كيف أقول لك... ليس ديناً... إن أباك الذي كان لاحدّ لطيبته...

- نعم، لكن هل كان أبي يعتبر ذلك ديناً؟

- لا أستطيع أن أقول لك ذلك. أجهل ذلك. أعلم أن عندك من الهموم غير هذا ما يكفيك.

رأى أوجين أن ماري بافلوفنا لم تكن هي نفسها تعلم ما تقول.

قال الابن:

- أرى من ذلك كله أنه يجب الدفعُ، سأذهب إليها غداً وأسألها إذا لم يكن ممكناً استمهالها.

نصحته أمّه بعد أن هدأت، وهي فخورةٌ بقرار ابنها:

- اوه! كم أرتي لك! لكن هذا أفضل. اطلب إليها أن تنتظر.

لقد غدا وضعُ أوجين أشد صعوبة لكون أمه التي تعيش معه، لم تكن تفهم هذا الوضع البتة. لقد عاشت حياتها كلها بلا حساب حتى إنها لا تستطيع أن تتصوّر الوضع الذي كان فيه ابنها، والذي بلغ حداً قد يغدوان فيه بين يوم وآخر مُعدميْن، فيضطران إلى بيع كل شيء، حتى لا يبقى لهما سوى رواتب أوجين التي تبلغ، على الأكثر، ألفي روبل، لم تكن تفهم أنه للخروج من هذا الوضع، لابد من إنقاص النفقات في كل شيء، وكانت تدهش حين ترى أوجين يوفّر من نفقة البستاني والحوذي بل ومن نفقة المائدة.

فضلاً عن ذلك، كانت تكن لذكرى زوجها، كمعظم الأرامل، شعوراً من العبادة يتجاوز كثيراً كل ما تعرف به في حياته، و لم تكن تقبل فكرة أن ما فعله زوجها يمكن أن يكون سيئاً أو أن يُعدَّل.

كان أوجين يتعهد بصعوبات كبيرة، الحديقة والبيت الزجاجي مع بستانيين، وكان له حوذيان للاصطبل، لكن ماري بافلوفنا لأنها لم تكن تشكو الطعام الذي يُعدّه الطاهي العجوز، ولا كونَ الممرّات لم تمشط بعناية، ولا لأنه لم يبقَ، بدلاً من الخدم الفراشين سوى وصيف واحد، كانت تعتقد بسذاجة أنها تفعل كل ما تستطيع أن تفعله أم تضحّي بنفسها في سبيل ولدها.

وكذلك بالنسبة إلى هذا الدين الجديد الذي رأى فيه أوجين ضربةً قد تدمّر كليّاً جميع مشاريعه، لم تكن ماريا بافلوفنا ترى فيه سوى مناسبة لأوجين كي يُظهر كرمه. هناك أيضاً اعتبار آخر كان يدعو ماريا بافلوفنا إلى أن تهتم أقلّ اهتمام بوضع أوجين المادي، وهو أنها كانت واثقة من أنه سيتزوج زواجاً باهراً يسوَي كل شيء. كان يمكنه أن يتزوج زواجاً من أروع ما يكون. كانت تعرف نحو عشر أسر ستكون سعيدة لو أعطته بناتها، وكانت ترغب لو تفعل ذلك بأسرع وقت ممكن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

–4–

أوجين كان يحلم هو أيضاً بالزواج، لكن لا كأمه. إن فكرة زواجه لتسوية شؤونه كانت تثير نفوره. كان يريد أن يتزوج بشرف، عن حب، وكان يفحص الفتيات اللواتي يعرفهن أو يصادفهن، ويقارن بينهن، لكنه لم يكن يصمّم.

بيد أن علاقاته مع (ستيبانيدا) استمرت، وهو شيءٌ لم يكن ينتظره البتة، بل إنها اتخذت طابع شيء ثابت. فبعد لقائهما الأول، كان أوجين يأمل ألا يراها بعد، لكنه أحسّ مرة أخرى بعد زمن بقلق حدَّد سببه، والقلق هذه المرة لم يكن شخصيّاً، لكنه كان يسترجع بالتحديد ذكرى العينين السوداوين اللامعتين ذاتهما، والصوت الخفيض ذاته، ورائحة الكائن النضر والقوي ذاته، وذلك الصدر البارز ذاته الذي كان يرفع قميص النوم، كل ذلك في غابة أشجار الجوز والدُلْب التي تغمرها الشمس.

وأيّاً كان الخجل الذي استشعره، فقد توجّه مرةً أخرى إلى دانيلو. ومرة أُخرى حُدِّد الموعدُ ظهراً في الغابة وقد فحصها أوجين هذه المرة أيضاً أكثر من المرة الماضية، فبدا له كل ما فيها جذاباً. حاول أن يبادلها الحديث، وكلمها عن زوجها. لقد كان زوجها بالفعل ابن ميشيل وكان يشتغل حوذياً في موسكو.

أراد أوجين أن يسألها لماذا كانت تخدع زوجها:

- حسناً... كيف يجوز أنكِ أنتِ...

قالت:

- ماذا؟ كيف؟

لقد كانت ذكية بدون أدنى شك.

- نعم، (كيف يجوز أن تأتي معي؟).

قالت بمرح:

- آه! أظن أنه لا يحرم نفسه من ذلك هناك.

وإذن فلماذا لا أفعل مثلما يفعل؟

كان واضحاً أنها تبذل وسعها لتتباهى بجسارتها وقحتها، وبدا ذلك لأوجين رائعاً، على أنه لم يحدد لها موعداً: وحتى عندما اقترحت عليه أن يتلاقيا بمعزلٍ عن دانيلو الذي بدا أنها لا تحبه كثيراً لسبب غير معلوم، رفض أوجين. كان يأمل أن يكون هذا اللقاء آخر لقاء. كانت تعجبه وكان يعتقد أن مثل هذه العلاقة ضرورية له، وأنه لا بأس من ذلك، بيد أن قاضياً صارماً في أعماق نفسه، كان

يستنكر ذلك، وكان يأمل أن تكون هذه المرة الأخيرة. وإذا لم يكن يأمل ذلك، فقد كان يأبى على الأقل أن يضع فيه تصميماً مسبقاً وأن يهيىء مسبقاً لقاءً جديداً.

هكذا مرّ الصيفُ كله، وقد اِلتقيا فيه نحو عشر مرات، ودائماً بواسطة دانيلو. وفي إحدى المرات لم تستطع أن تأتي لأن زوجها وصل، فاقترح دانيلو امرأة ثانية، فرفض أوجين باشمئزاز ثم سافر الزوج، وعادت اللقاءات إلى ما كانت عليه، بواسطة دانيلو أولاً، ثم حدد هو نفسه اليوم، وكانت تأتي مع امرأة، (بروكوروفا)، لأن المرأة لا تستطيع أن تذهب وحدها.

ذات يوم، في نفس اللحظة المحددة لموعد اللقاء، استقبلت ماري بافلوفنا أسرة فتاة كانت تريد تزويجها لابنها، وكان يستحيل على (أوجين) أن يخرج، وما إن استطاع أن يتملّص، حتى تظاهر بأنه ذاهب إلى مخزن الحبوب، ثم جرى إلى الغابة موضع اللقاء بدرب ضيّق. لم تكن هناك، لكن كل شيء تطوله اليد، في الموضع المعهود، كان محطّماً أشجار الجوز، أشجار كرز الطير، حتى شجرة قبقب فتيّة، لقد انتظرته، وثارت أعصابها وغضبت وكسّرت كلَّ ذلك لكي يتذكّر. بقي لحظةً هنا، ثم ذهب إلى دانيلو وطلب إليه أن يأتي بها غداً. فجاءت في الموعد المحدد بدقة ولم تتبدّل.

هكذا مرَّ الصيف. كانت اللقاءات تجري دائماً في الغابة إلا مرة واحدةً، عند اقتراب الخريف، فقد اِلتقيا في مخزن الحبوب، قرب البيت.

لم يخطر ببال (أوجين) أن هذه العلاقات يمكن أن تكون ذات أهمية ما بالنسبة إليه، أما فيما يخصّها، فلم يكن يفكر قَطّ. كان يعطيها مالاً، لا أكثر لم يكن يفكر أن القرية كلها على علم بعلاقتهما، وأن الناس كانوا يحسدونها، ويبتزّون منها المال، ويشجعونها وأن مفهوم الخطيئة قد اختفى تماماً بتأثير المال ونصائح الأهل. كان يبدو لها أن الناس إذا غاروا منها فلأن ما تفعله حسن.

كان أوجين يفكّر: (لابدّ من ذلك للصحة فقط، ولنسلّمْ بأن ذلك غير حسن... ومع أن أحداً لا يقول شيئاً إلا أن الناس جميعاً لابد أن يعرفوا... المرأة التي ترافقها تعلم... وإذا كانت تعلم فلاشك أنها حدّثت الآخرين. لا، إنني أتصرف تصرفاً سيئاً، لكن ما العمل، لن يدوم ذلك طويلاً).

ما كان يضايق (أوجين) بخاصةٍ هو الزوج، تصوّر في البدء أن الزوج بشعٌ جدّاً، وكان ذلك يبدو مسوِّغاً لسلوكه. لكنه رأى الزوج وذُهل: كان فتى جميلاً، أنيقاً، ليس أقلّ منه بالتأكيد، بل إنه أحسن كثيراً، في أول لقاء بعد ذلك، قال إنه رأى زوجها وأعجب بهذا الفتى الجميل.

قالت باعتزاز:

- ليس له مثيل في القرية!

أدهش ذلك أوجين، ثم لم تُؤرقّه فكرةُ زوجها بعد ذلك، وذات مرة بينما كان عند دانيلو بكل بساطة أثناء الحديث:

- سألني ميشيل في أحد الأيام القريبة إن كان حقّاً أن المعلم يصاحب امرأته، فأجبته إنني لا أعلم شيئاً من ذلك. فقال: (باه! على كل حال، لأَنْ تكون مع سيد خيرٌ من أن تكون مع فلاح).

- ثم ماذا قال أيضاً؟

- لاشيء سوى أنه أضاف: (انتظر، سأعرف الحقيقة، وسأريه...).

- إن عاد الزوج فسوف أتركها.

لكن الزوج ظلّ في المدينة، واستمرت علاقاتهما. وفكّر: (عندما يحين الوقت سأقطع صلتي وسينتهي كل شيء). وبدا له ذلك أكيداً، ولاسيما أن عدة أشياء شغلتْه في هذا الصيف: (بناء الضيعة الجديدة، جني المحصول، العمارات، وقبل كل شيء، دفع الدين وبيع جزء من الأراضي. كانت هذه الأشياء تستغرقه كليّاً، وكان يفكر فيها من الشروق إلى الغروب. كلُ ذلك كان الحياة، الحياة الحقيقية، في حين أن صلاته مع ستيباندنيا (لم يكن يُسمي ذلك علاقة) عديمة الأهمية. الحقّ أن الرغبة في رؤيتها حين كانت تظهر تلك الرغبة، كانت تظهر بكثير من العنف حتى لم يكن بوسعه أن يفكّر في شيء آخر ، لكن ذلك لم يكن يدوم طويلاً: لقاءٌ ثم ينساها من جديد لأسابيع، وأحياناً لشهر.

حين جاء الخريف، تردّد أوجين كثيراً على المدينة، وهناك تعرّف على أسرة آننسكي. في هذه الأسرة كانت فتاة خرجت منذ فترة قصيرة من المدرسة الداخلية، ولقد أثار حزن ماريا بافلوفنا أن أوجين باع نفسه - حسب تعبيرها - بثمن بخس. لقد أُغرم (بليز) وطلب يدها. ومنذ هذه اللحظة، توقفت صلاته مع (ستيبانيشا).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

–5–

لماذا اختار أوجين (ليز آننسكي)؟ ليس بوسعنا تفسير ذلك. كما أنه ليس بوسعنا أبداً لم يختار الرجل هذه المرأة لا تلك. لقد كان لاختياره طائفة من الأسباب الإيجابية والسلبية. وأحد الأسباب أنها لم تكن الفتاة الغنية التي كانت أمه تحلم بها، وأنها كانت ساذجة ومؤثرة في علاقاتها وأنها لم يكن لها ذلك الجمال الذي يجذب الانتباه، دون أن تكون مع ذلك بشعة، والسبب الرئيسي أنه تعرّف عليها عندما بدأ ينضج للزواج. كانت ليز آننسكي تُعجبُ أوجين في البداية، لا أكثر، أما عندما صمّم أن يتّخذها زوجة له، شعر نحوها بعاطفة أكثر حدّةً وأدرك أنه عاشق، كانت ليز نحيفة، طويلة. كان كل شيء فيها طويلاً: الوجه، والأنف الذي لم يكن محدباً لكنه يمتد طولاً على الوجه، واليدان والقدمان. كان جلد الوجه ناعماً، أبيض مع بعض النقاط المصفرة وشيء من الحمرة، كان شعرها طويلاً أشقر حريرياً جعداً، كانت عيناها جميلتين صافيتين عذبتين وواثقتين وقد راعت عيناها بخاصة أوجين، وعندما كان يُفكر في ليز، كان يتصور دائماً عينيها الصافيتين، العذبتين، الواثقتين.

هذه الناحية الجسدية. أما معنوياً فل يكن يعلم شيئاً عنها، لم يكن يرى سوى عينيها، وكانت عيناها كأنما تقولان كل ما يجب أن يعرفه، فمنذ المدرسة الداخلية منذ الخامسة عشرة كانت ليز مغرمةً بجميع الرجال الذين يملكون بعض المحاسن. لم تكن منتعشة كانت تشغف بجميع الشباب الذين تصادفهم، وبطبيعة الحال فقد أغرمت بأوجين حالما تعرفت عليه. كانت هذه الحالة الغرامية التي تهبُ عينيها ذلك التعبير الخاص الذي سحر أوجين.

في هذا الشتاء نفسه، كانت مغرمةً بشابين في آن واحد، وكانت تحمرُّ خجلاً وتضطرب لا عندما يدخلان الغرفة التي تكون فيها فحسب، بل عندما يلفظ اسماهما. لكن منذ أن لمحت لها أمها بأن (ارتينييف) يبدو كأن له نيَّة جادة، كبر حبُّها له بنسبة كبيرة حتى إنها غدت غير مبالية بالاثنين الآخرين. وعندما بدأ ارتينييف يزورها وعندما راقصها في الحفلات الراقصة والسهرات أكثر مما راقص غيرها، ولم يكن يسعى فيما يظهر، إلا أن يعرف إن كان محبوباً، حينئذ شُغفت به على نحو مَرَضيّ تقريباً. كانت تراه في الحلم، بل كانت تعتقد أنها تراه في الواقع، عندما تكون في مكان مظلم، ولم يعدْ غيرُه موجوداً بالنسبة إليها. وبعد طلب الزواج ومباركة الأهل، وعندما تعانقا وأصبحا خطيبين، فإنَّ فكرة واحدة، رغبة واحدة، حلت محل جميع الأفكار الأُخرى، وجميع الرغبات الأخرى: أن تبقى معه، أن تحبه، وتكون محبوبة. كانت فخورةً به: كانت تتحنّن عليه وعلى نفسها، وكان حنانها على نفسها يُذيبها حباً له. أما أوجين فكلما ازداد معرفةً بها ازداد حبّاً لها. لم يكن يتوقع أن يلقى مثل هذا الحب، وكان هذا الهوى يزيد من عاطفتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

–6–

قبل الربيع، يمّم شطر سيميونوفسكوي ليرى أملاكه، ويبلّغ أوامره، وقبل كل شيء، ليُعدّ البيت الذي سيعود للإقامة فيه بعد الزواج.

كانت ماري بافلوفنا مستاءةً من اختيار ابنها. لا لأن هذا الزواج ليس الزواج المتألق الذي يمكن أن يطمح إليه، ولكن لأن حماة ابنها لم تكن تعجبها أيضاً. أكانت خيّرة أم شرّيرة، كانت تجهل ذلك ولا تنشغل به، لكن ماري بافلوفنا لاحظت عند أول لقاء، أنها لم تكن امرأة متميّزة، سيدة راقية، كما كانت تقول، وكان ذلك يحزنها. كان ذلك يحزنها لأنها كانت تقدّر التميّز، وكان ذلك عادة فيها، وإذ كانت تعلم أن أوجين شديد الحساسية من هذه الناحية، فقد كانت تخشى أن يتألم منها. أما الفتاة فكانت تُعجبها قبل كل شيء لأنها تُعجب أوجين، كان يجب إذن أن تُذعن لحبها، وكانت ماري بافلوفنا مستعدة لذلك، بصدقٍ تماماً.

وجد أوجين أمه سعيدة، مسرورة. كانت ترتّب كل شيء في البيت، وكانت هي نفسها تتهيأ للسفر حالما يأتي أوجين بزوجته. فرجاها أن تبقى، وظلت هذه المسألة معلّقة.

في المساء بعد الشاي، لعبت ماري بافلوفنا، على عادتها، لعبة الصَبْر بالورق، وكان أوجين جالساً قربها، يساعدها، كانت اللحظةُ لحظة الأحاديث الحميمة، وعندما انتهت من لعبتها، لم تبدأ لعبة أخرى، ونظرت إلى أوجين، وبدأت كلامها، وهي مترددة قليلاً، على النحو التالي:

- إليك يا أوجين ما أحببت أن أقوله لك. لا شك أني لا أعلم شيئاً، لكن نصيحتي على العموم، هو أنك يجب أن تنتهي تماماً من مغامرات العزّب حتى لا ينشغل بالك فيما بعد ولا بال امرأتك (حفظها اللّه). أتفهمني؟

لقد فهم أوجين بالفعل وعلى الفور، أن ماري بافلوفنا تُلمّح إلى علاقاته مع سبيبانيدا، وهي علاقات قطعها منذ الخريف وأنها مثل معظم النساء اللواتي يعشن وحيدات، كانت تعلّق على هذه العلاقات من الأهمية أكثر ممّا لها، أحمرّ أوجين، غيظاً أكثر منه خجلاً، حين رأى ماري بافلوفنا الطيّبة تتدخّل - حبّاً به في الحقيقة لكنه تدخّلٌ - في أشياء لا تفهمها ولا تستطيع أن تفهمها. وأكد لها أن ليس من شيء يدعو إلى الخوف لأنه تصرف دائماً تصرّفاً لا يمكن أن يُعيق الزواج.

قالت ماري بافلوفنا:

- هذا حسنٌ جدّاً. لا تغتظ، أوجين.

لكن أوجين لاحظ أنها تُنه كلامها وأنها لم تقلْ ما أرادت أن تقوله. وكان ذلك شيئاً حسناً. وبعد قليل أخذت تروِ له أنها قد طلب إليها أثناء غيابه أن تكون اشبينة عند... آل بيتشنيكوف. أحمرّ أوجين من جديد، لا من غيظ أو خجل هذه المرة لكن من شعور غريب، من الشعور بأهمية ما سوف يُخبْرُ به من الشعور بشيء مختلف كلياً عن محاكماته. وبالفعل، وقع ما توجّس خيفةً منه. لقد روت ماري بافلوفنا، بلا قصْدٍ سيء ظاهر، أن هذه السنة لم يُولد فيها سوى الصبيان، وأن ذلك ربما من علامات الحرب. فالمولود الأول عند آل غاسين وعند آل بيتشيكوف كان صبيّاً أيضاً. أرادت ماري بافلوفنا أن تروي ذلك دون أن يبدو عليها أنها تمسّ ذلك، لكن الخجل انتابها أيضاً عندما رأت حمرة وجه ابنها، وحركاته العصبية بنظارته وطرائقه العجولة في إشعال السجائر. فصمتت، و لم يعرف كيف يقطعُ هذا الصمت، وظلّا كلاهما مقتنعين بأن كلاًّ منهما فهم الآخر.

- نعم، الشيء الأساسي في الريف هو العدل، حتى لا يكون هناك مفضّلون، كما هي الحال عند عمك.

قال أوجين فجأة:

- ماما! أعلم لماذا تقولين ذلك كله. لكنْ لا جدوى من ذلك. إن حياتي العائلية الآتية شيءٌ مقدّسٌ عندي، ولن أمسّها بأذى، في أية حال من الأحوال. كل ما كان في حياتي كفتىً قد انتهى تماماً، لم يكن لي قَطُّ علاقة دائمة، وليس لأحدٍ حقٌّ عليّ.

قالت الأم:

- هذا حسنٌ، وأنا سعيدة بذلك، وأنا أعرف عواطفك النبيلة.

قَبِل أوجين كلام أمه وكأنه ضريبة مستحقة وسكت.

في صباح اليوم التالي ذهب إلى المدينة. كان يفكر في خطيبته، في كل شيء في العالم ما عدا ستيبانيدا، ولكن، عندما اقترب من الكنيسة صادف ناساً عائدين منها مشياً وفي العربات وكأن ذلك كله أراد عمداً أن يردّه إلى نفسه، كان بين الناس (متّى) العجوز مع (سيميون)، وأولادٌ، وفتيات، ثم امرأتان إحداهما مسنّةٌ، والأخرى أنيقةٌ، في خمار أحمر قانٍ، وبدا له أنه يعرفها، كانت المرأة الشابة تمشي بخطوات خفيفة، واثقة، وتحمل طفلاً بين ذراعيها. وعندما وصلتا بحذائه، حيَّته المرأة المسنة على الطريقة القديمة وقد توقفّت أما المرأةُ الشابةُ فقد حيته بانحناءة من رأسها فقط. ومن تحت الخمار حطت عليه عينان مرحتان، باسمتان كان يعرفهما. (نعم، إنها هي، لكن كل شيء

انتهى، ولا داعي للنظر إليها. والولد؟..). وخطر بباله (لعله ابني. لا، هذا غباء. كان زوجها هنا).

كان مقتنعاً كل الاقتناع أن المسألة كانت بالنسبة إليه مسألة صحة فقط، وأنه لم يعدْ مديناً بشيء بعد أن أعطى المال، وأنه ليس بينه وبينها أي رابط، لم يكن ولن يكون بينهما أي رابط لا لأنه كان يخنق صوت الضمير، بل بكل بساطة لأن ضميره لم يكن يقول له شيئاً، وبعد حديثه مع أمه وبعد هذا اللقاء لم يفكّر فيها لمرةً واحدة و لم يصادفها.

بعد الفصح احتُفل بالزواج في المدينة، وفي الحال سافر أوجين مع امرأته الشابة إلى الريف، كان البيت مرّتباً كما يُرتبُ البيت عادةً للعريسين. أرادت ماري بافلوفنا أن تُسافر، لكن أوجين وليز على الخصوص، رجواها أن تبقى. فبقيت لكنها استقرت في جناح المبنى.

هذه السنة الأولى من الحياة المنزلية كانت سنةً صعبةً جدّاً. كانت صعبة لأن الأعمال التي أجّلها أثناء الخطبة، قد جاءته كلُّها معاً، لقد تحقّق مُجبراً أن من المستحيل عليه التخلّص من الديون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بيعَ شطرٌ من الملكية لتسديد الديون الأكثر إلحاحاً، لكنْ كانت هناك ديون أُخرى، وكان يظلّ بلا مال. كانت الأملاك تعطي مردوداً حسناً، كان لا بد من إرسال المال إلى الأخ، وكانت هناك نفقات الزواج، بحيث أن المال كان يعوزه، بل إنه اضطر لإيقاف عمل المصفاة. لم يكن له سوى وسيلة واحدة ليتخلص من ورطته وهي: استخدام مال زوجته. وإذ أدركت (ليز) وضع زوجها، طلبت إليه أن يفعل ذلك. قَبِل أوجين، لكن بشرط أن يسجل نصف ملكيته باسم زوجته، بصك بيع وفعل ذلك طبعاً لا من أجل امرأته التي تأذت من ذلك، بل من أجل حماته.

إن الوضع الحرج لأعماله كان أحد الأشياء التي سممّت حياة أوجين أثناء هذه السنة الأولى. الشيء الثاني كان مرض زوجته. ففي هذه السنة نفسها وبعد زواج بسبعة أشهر. في الخريف، وقع حادثٌ لليز، لقد سافرت في عربة ذات مقاعد للقاء زوجها العائد من المدينة. وأخذ الجواد الهادئ جدّاً يثب، فخافت ليز ورمت بنفسها من العربة، كان سقوطها سليماً نسبيّاً، إذ استطاعت أن تتشبّث باحدى العجلات، لكنها كانت حبلى، وعند الليل جاءها المخاض وأجهضت و لم تُبلَّ إلا بعد زمن طويل.

إن فقدان الوليد المنتظر ومرضَ زوجته والتعقيدات المادية التي نجمت عن ذلك، ولاسيما حضور حماته التي هُرعت لتُعنى بليز، كل ذلك أسهم في جعل هذه السنة الأولى أشق على أوجين.

ومع ذلك وبالرغم من هذه المناسبة الحزينة، أحس أوجين في أواخر السنة الأولى، بأنه في وضع حسن جدّاً. أولاً لأن فكرة تجديد حياة جده بأشكال جديدة وإن كانت ببطء وعلى نحو مختلف، أخذت تتحقق، لم يعدْ وارداً الآن بيعُ الأملاك لتسديد الديون. فالملكية الأساسية التي انتقلت إلى اسم زوجته قد أُنقذتْ، ومع محصول وفير من الشمندر الذي بيع بسعر جيد، وكان رخاءً مؤكداً بالنسبة إلى السنة المقبلة، بدلاً من الوضع الموقّت في هذه السنة.

هذا شيء، وشيء آخر هو أنه وجد في امرأته ما لم يكن ينتظر أن يجده فيها، وإن كان قد انتظر الكثير. لم يكن ذلك هو ما أمله، كان أفضل كثيراً من ذلك. لم يكن الحنان ولا الحماسة الغرامية، وإن كان يسعى إلى إثارتهما، لا لم يكن ذلك، كان شيئاً مختلفاً تماماً لم يجعل حياته أكثر بهجة ومسرة، بل جعلها أسهل بكثير، لم يكن يعلم إلى أي شيء يعزو ذلك، لكن الأمر كان كذلك، كان الأمر كذلك لأن (ليز) قرّرت بعد زواجها على الفور، أن أوجين ليرتينييف كان الأفضل بين الرجال جميعاً والأنقى والأنبلَ، ومن ثمّ، فإن من واجب الجميع أن يفعلوا كل شيء ليرضوا ارتينييف هذا، ولكنّ بما أنه لا يمكن إجبار جميع

الناس على هذا التصرف، فلا بد حينئذٍ من أن تستخدم جميع قواها لهذا الغرض. وكانت تفعل ذلك. كانت جميع قواها المعنوية متجهة إلى استشفاف ميوله ورغباته، ثم إلى إرضائها، مهما يكن ذلك صعباً. كان فيها ما يصنع السحر الرئيسي في مخالطة المرأة المُحبة. كانت تستطيع أن تقرأ في نفس زوجها، بفضل حبِّها له، كانت تشعر - أفضل منه نفسه، كما كان يبدو لها - بحالته النفسية، بأدنى ظل من ظلال العواطف، وتتصرف على هذا الأساس. ولذلك لم تكن تصدم عواطفه أبداً، لكنها كانت تلطف إحساساته المؤلمة وتوسع إحساساته الفرحة. ولم تكن تفهم عواطفه فحسب، بل وأفكاره أيضاً. وقد غدت أغرب الأشياء عليها كالزراعة والمصفاة، وتقييم الناس، سهلة التناول دفعة واحدة، وأصبحت تُحسن أن تكون محدّثة له، بل ومُشيرة نافعة لا غنى عنها. كانت لا تنظر إلى الأشياء والناس وإلى كل شيء في الدنيا، إلا بعينيه. كانت تحب أمها، لكنها حين رأت أن حشْرَ أنفها في حياتهما كان يغيظ أوجين، انحازت على الفور إلى صف زوجها و بحزم شديد حتى اضطر إلى التخفيف من غلوائها.

وفضلاً عن ذلك، كانت تملك كثيراً من الذوق والحصانة والرقة. وكل ما كانت تفعله كانت تفعله دون أن يلاحظها أحد، لم تكن ترى سوى نتيجة ما تفعل، وكانت تحمل النظافة والنظام والأناقة إلى كل شيء. أدركت ليز رأساً ما المثل الأعلى لزوجها وبذلت وسعها كي تبلغه، وحققت ما كان يرغب فيه، كان ينقصها الأطفال، لكن الأمل كان موجوداً. وفي أثناء الشتاء، ذهبا إلى بطرسبرج لاستشارة اختصاصي، فأكدّ لهما أن ليز صحيحة الجسم ويمكنها أن تضع أطفالاً. وقد تحققت هذه الرغبة. ففي آخر العام كانت ليز حاملاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

–8–

شيءٌ واحد كل يهدّد سعادتهما: غيرتها، وهي غيرة كبتتْها، ولم تظهرها، لكنها كانت تتألم منها، في الغالب، لم يكن أوجين يستطيع أن يحب امرأة، لأن ليس في الدنيا امرأة جديرة به، (أما إن كانت هي جديرة به أم لا، فلم تكن تتساءل عن ذلك) ليس هذا فحسب بل لأن ليس من امرأة تجرؤ أن تحبه. كان كل شيء يسير سيراً حسناً. كانا يعيشان في الريف، وحدهما. وحتى أمها التي كانت تعكُر صفوهما قليلاً، سافرت وظلت ماري بافلوفنا وحدها، التي كانت ليز صديقتها، على وجه الخصوص، تأتي وتقيم أسابيع كامله. كانت حياتهما كأسعد وأعذب ما تكون الحياة، وكانت أعمال أوجين تسير على نحو رائع، وكانت صحة ليز، برغم حملها، ممتازةً وكان الرابط بين الزوجين يزداد توثقاً دون أن يعوقه عائق.

كانت حياتهما مرتّبة على الطريقة التالية: كان أوجين ينهض مبكراً دائماً، ويقصد الحقول أو المعمل، وفي نحو العاشرة يأتي يتناول الشاي على السطح، حيث تنتظره ماري بافلوفنا التي يسكن في بيتها، وليز. بعد حديث نشط في الغالب، أثناء تناول القهوة، كانا يفترقان حتى الغذاء، وكان كلً منهما ينشغل على هواه، في القراءة أو الكتابة. أو أي شغل آخر، ثم يقومان بنزهة على الأقدام أو في العربة. وفي المساء، عندما كان أوجين يعود من مكتبه، كانا يتناولان الشاي، وربما قرأا، في وقت متأخر، بصوت مرتفع، كانت ليز تعمل، أو تعزف الموسيقا، أو تشارك في الحديث عندما يزورهما الأصدقاء وعندما كان أوجين يتغيّب، كان يتلقى رسالةً كل يوم من امرأته، وكانت أحياناً تصحبه، وكان ذلك، مبهجاً وفي عيدها أو عيده، كانا يجمعان المدعوين، وكان شيئاً ممتعاً أن يُرى كيف تحسن ترتيب كل شيء بحيث تُسّرُّ الناس جميعاً، كان يرى ويسمع أن الجميع يُعجبون بزوجته الشابة والفاتنة، فيزداد حبَّه لها.

كل شيء كان على ما يرام. كانت تتحمّل حَمْلها بسهولة وبدأ كل منهما يبني المشاريع، ولو بتخوّف عن طريقة تربية الوليد القادم. وكان أوجين هو الذي يقرر نمط التربية وطرائقها. أما هي فلم يكن لها سوى رغبة واحدة أن تتصرف بحسب إرادته، وأخذ أوجين يقرأ كثيراً من كتب الطب، ويمنّي نفسه بأن ينشّيء ولده وفقاً لجميع قواعد العلم، وبالطبع فقد كانت موافقةً، ومستعدة لكل شيء. على هذه الحال، جاءت السنة الثانية من زواجهما، ربيعهما الثاني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

كان ذلك في عيد الثالوث، كانت (ليز) حاملاً في شهرها الخامس، ومع أنها اتَخذت الكثير من الاحتياطات، فقد كانت مرحةً وكثيرة الحركة. وكانت الأمّان، أم ليز وأم أوجين، اللتان تعيشان في البيت، بحجة السهر على ليز، لا تنيان تضايقانها بخصامهما، وكان أوجين يهتم بحماسة خاصة بالزراعة الجديدة الواسعة للشمندر.

عند اقتراب عيد الثالوث، صّممت ليز أن تشرع في تنظيف البيت من أساسه، وهو تنظيف لم يكرّرْ منذ عيد الفصح، ولكي تساعد خدمها، استقدمت امرأتين مياومتين لتنظّفا أرض البيت، والنوافذ والأثاث، ولكي تنفضا السجاد، ولكي تضعا أغطية الأثاث، وفي الصباح الباكر، جاءت المرأتان وهيأتا دِلاء الماء وعكفتا على عملهما، كانت إحدى هاتين المرأتين (ستيبانيدا) التي فطمت قبل فترة وجيزة ابنها، وشغّلت نفسها، بطريق أحد المستخدمين: لقد أرادت أن ترى عن كثب السيدة الجديدة. وكانت ستيبانيدا تعيش كالسابق، بدون زوجها، وتتابع مجونها كالسابق، مع دانيلو العجوز الذي فاجأها مرة تسرق الحطب، ثم مع السيّد المالك، ثم مع مستخدم شاب في المكتب.

لم تعد تفكّر في السيد المالك. كانت تقول نفسها: (إن له امرأته الآن، لكن من الممتع لي أن أرى السيّدة وبيتها. يقال إن بيتها مرتّب ترتيباً حسناً).

لم يرها أوجين بعد أن لقيها هي وصبيّها، لم تكن تشتغل مياومة، لأنها كانت تلازم ابنها، وكان هو قلّما يذهب إلى القرية.

في هذا الصباح، قبل عيد الثالوث بيوم، نهض أوجين في الساعة الخامسة صباحاً، وذهب إلى الحقول التي سيُوضع فيها الفوسفات، خرج من البيت قبل أن تدخله المرأتان، كلتهما كانتا في المطبخ قرب فرن تسخين الماء.

عاد أوجين لتناول الطعام وهو سعيد، مسرور، شديد الجوع. ترجّل عن جواده قرب باب العربات، وبعد أن سلّم جواده إلى البستاني الذي كان مارّاً من هنا، اتجه إلى البيت، وهو يضرب بسوطه العشب العالي، مكّرراً جملة واحدة، كما يقع له أحياناً، والجملة التي كان يرددها هي: (الفوسفات سيغلّ) ماذا؟ ولمن؟ لم يفكّر في ذلك البتّة. كان السجادُ يُنفض في الفناء. وقد أخرج جميع الأثاث، فقال في نفسه: (يا إلهي، ما هذا التنظيف الذي باشرته ليز! سيغلّ الفوسفات. إنها لربة بيت حقيقية! نعم. أية مدبّرة هي! وتصورها بحرارة، بثوبها الأبيض، وبوجهها الذي يشعّ سعادة، سعادة كان يراها كلما نظر إلى وجهها. (نعم، يجب أن أغيّر جزمتي، وإلا... الفوسفات سيغلّ، أي ستنتشر رائحة السماد، وصاحبة البيت في مثل هذا الوضع... لم هي في مثل هذا

الوضع؟... نعم، هناك يكبر ارتينييف صغيرٌ، نعم الفوسفات سيغلّ) دفع باب الغرفة وهو يبتسم لأفكاره. لكن الباب في اللحظة نفسها، انفتح مشدوداً من الداخل، وألقى نفسه وجهاً لوجه مع امرأة خارجة وبيدها دلو، مشمّرة تنورتها، حافية القدمين، مرفوعة الكمين. تنحّى ليفسح المجال للمرأة، وتنحّت هي أيضاً، وهي تُصلح بيدها المبللة خمارها الذي انزلق، بدأ أوجين يقول:

- امضي، امضي. لن أمرّ إذا...

لكنه توقف عن الكلام فجأة: لقد تعرّفها.

ابتسمت بعينيها، ونظرت إليه بمرح وخرجت وهي تسحب تنورتها، قال اوجين في نفسه وهو يقطّب حاجبيه: (ما هذه المسخرة! ما معنى هذا؟ هذا غير ممكن!) وطرد بيده فكرة مضايقةً، كما تُرد الذبابة، وقد استاء من رؤيتها. كان مستاء من رؤيتها، لكنه لم يستطع في الوقت نفسه أن يرفع عينيه عن جسدها الذي كان يتهادى بمشيته الواثقة ورجليها الحافيتين، وذراعيها، وكتفيها، والطيات الرشيقة لتنورتها الحمراء المرفوعة فوق ربلتيها البيضاوين.

قال في نفسه وهو يخفض بصره لكي لا يراها: (لكن لماذا أتطلّع، نعم، يجب مع ذلك أن أدخل واحتذي حذاءً آخر). واتجه إلى غرفته، لكنه لم يسر خمس خطوات حتى اِلتفت إلى الوراء ليراها مرة أخرى، وهو لا يعلم كيف وبأية قوة اِلتفت، كانت تنعطف عند الزاوية، وفي اللحظة نفسها اِلتفتت هي أيضاً من جهتها. قال في نفسه: (آه! ماذا أفعل؟... نعم، لاشك أنها فكّرت في ذلك!).

دخل الغرفة المبلّلة. كانت فيها امرأةٌ مسنّةٌ هزيلةٌ، تغسلها. تقدّم أوجين على أصابعه بين النقع الصغيرة الموحلة حتى بلغ الجدار حيث نزع جزمته، وكان سيخرج عندما خرجت المرأة أيضاً. (ذهبت هذه وستأتي الأخرى، ستيباندا، وحدها). هكذا كان يفكّر فيه إنسان آخر.

(يا إلهي! فيمَ أُفكر؟ ماذا أفعل!) وأمسك بجزمته، وركض في البهو، وهي بيده، ووضعها هناك، ونفض الغبار عن نفسه، وخرج إلى السطح حيث جلست الأمّان وهن تتناولانِ قهوتهما، كانت ليز بطبيعة الحال تنتظره. وظهرت على السطح من باب آخر، في الوقت الذي ظهر فيه. وفكّر: (يا إلهي! وهي التي تظنني شريفاً جدّاً، نقياً جدّا، طاهراً جدّاً، لو كانت تعلم!).

قابلتْه (ليز) على عادتها مشرقة الوجه. لكنها بدت له هذا اليوم شاحبة، صفراء، طويلة وضعيفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

–10–

جرى، أثناء القهوة وكما يجري دائماً، حديثٌ بين النساء أُبعدَ عنه كلَّ رابط منطقي، لكنه ظلّ مع ذلك مرتبطاً بشيء، لأنه امتدّ بلا انقطاع. كانت السيدتان تتراميان بسهام الكلام. وكانت ليز التي تعودت ذلك تحاول أن تخفّف من حدة لّذْعها.

قالت لزوجها:

- أنا آسفة لأنني لم أستطع أن أنهي غرفتك قبل عودتك، بي رغبةٌ شديدة لأن يُرتب كل شيء ترتيباً حسناً.

- حسناً! وأنتِ؟ هل نمتِ بعد ذهابي؟

- نعم، نمتُ. وأحسُّ أني بحالة حسنة.

قالت فارفارا ألكسيفنا، أم ليز:

- كيف يمكن لامرأة أن تكون حسنة في هذا الموضع، وفي هذا الحر الذي لا يُطاق، وبنوافذ معرضة للشمس، وبدون ستائر ولا مظلات فوق ذلك؟

فعّلقت ماري بافلوفنا:

- لكن الظلّ هنا يبدأ منذ العاشرة صباحاً.

قالت فارفارا ألكسيفنا دون أن تفطن إلى أن ما تقوله الآن يناقض تماماً ما أكدته من قبل: - لذلك نجد الحمّى... الرطوبة... يقول طبيبي دائماً إنه لا يمكن تحديد المرض دون معرفة مزاج المريض، وهو يعلم ما يقول لأنه أول طبيب، ونحن ندفع له مئة روبل. كان المرحوم زوجي ضد الأطباء، لكنه لم يكن يُبالي بالنفقة، في سبيلي.

- لكن كيف يمكن للزوج أن يقتّر عندما تكون حياة زوجته وابنه منوطتان به؟ نعم، عندما يتوفر المال، تستطيع المرأة أن تستقل عن زوجها.

قالت فارفا ألكسيفنا:

- المرأة الصالحة تطيع زوجها. لكن ليز ما تزال بالغة الضعف بعد مرضها.

- كلا، يا ماما، أحس أنني بحالة حسنة، ألْم يقدّمْ لكِ بعدُ شيء من القشدة المطبوخة.

- لا حاجة لي إليها، أستطيع أن أكتفي بالقشدة الطازجة.

قالت ماري بافلوفنا وكأنها تبرّر نفسها: - سألت فارفارا ألكسيفنا فرفضت.

- لا لا أريد.

وكأن فارفارا ألكسيفنا أرادت أن تنهي حديثاً كريهاً، مستسلمة بشهامة، فخاطبت أوجين: - حسناً! وهل وضعتم الفوسفات؟

جرت ليز لإحضار القشدة.

- لكني لا أريد! لا أريد قشدة!

صاحت ماري بافلوفنا:

- ليز! ليز! لا تسرعي هكذا! هذه الحركات السريعة ضارة بها.

فأعلنت فارفارا ألكسيفنا وكأنها تُلمحُّ إلى شيء، مع أنها تعلم هي نفسها أن هذه الكلمات لا يمكن أن تلمحّ إلى شيء: - لا شيء يضرّ إذا توفر الهدوء النفسي.

عادت ليز حاملةً القشدة.

كان أوجين يتناول قهوته ويصغي بصمت. لقد تعود مثل هذه الأحاديث، لكن غباوة هذه الأحاديث غاظته اليوم، على وجه الخصوص. كان يريد أن يُفكر فيما جرى له لكن هذا الهذر منعه من ذلك. وعندما انتهت فارفارا ألكسيفنا من قهوتها انصرفت وهي معتكرة المزاج. وحين أصبح أوجين وليز وماري بافلوفنا وحدهم، غدا الحديث بسيطاً وممتعاً. لكن ليز التي شحذ الحبّ حدسها، لاحظت على الفور أن شيئاً ما كان يُعذب أوجين فسألته إن لم يكن قد وقع له ما لا يُحبّ، لم يكن مُهيّأً لهذا السؤال، فارتبك قليلاً وهو يجيب بأنه لم يقع له شيء. ودفع هذا الجواب ليز إلى مزيد من التفكير. إن شيئاً كان يعذب أوجين، يعذبه كثيراً، إن ذلك كان واضحاً كوضوح ذبابة تسقط في الحليب. لكنه لم يكن يريد أن يقول ما به. فما به؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

–11–

افترق الجميع بعد الفطور. ذهب أوجين على عادته إلى مكتبه. لم يعمد إلى القراءة أو إلى كتابة الرسائل، لكنه جلس وأخذ يدخّن سيجارة بعد سيجارة، وهو يفكر. ماكان يدهشه ويحزنه، على نحو فظيع، هو هذا الإحساس السّيء الذي تبدّى فيه بغتةً والذي كان يحسب نفسه قد تخلّص منه بعد الزواج. وبالفعل فهو لم يحس مرة واحدة هذا الإحساس، منذ الزواج، لاتجاه ستيباندا، ولا تجاه أية امرأة أخرى، ماعدا زوجته. ولقد ابتهج في أعماق نفسه، عدة مرات، لهذا الخلاص، وإذا بهذا الإحساس يبدو من جديد فجأةً وعَرَضاً، ويظهر له أنه لم يتحرّر منه. كان معذّباً الآن، لا من الهيمنة الجديدة لهذا الإحساس، لا من الشهوة - فهو لم يشأ أن يفكّر في ذلك - لكن لكون هذا الإحساس ظلّ حيّاً فيه، وأنه يجب أن يأخذ حذره منه، و لم يراوده الشك نفسه في الانتصار على هذا الإحساس.

كان عليه أن يكتب رسالة ويحرّر وثيقة. جلس أمام طاولة الكتابة وأخذ يعمل. فلما انتهى من عمله، ونسي تماماً ما أدخل الاضطرابَ على نفسه، خرج ليمر على الإصطبل، وما كاد يخرج إلى درج المدخل حتى ظهرت من جديد التنورة الحمراء والخمار الأحمر، وكأن ذلك حدثٌ متعمدّ أو مصادفةً مشؤومة، ومرّت أمامه وهي تخطر بذراعيها وتتمايل. لم تمرّ مروراً فحسب، لكنها ركضت ركضاً وتجاوزته، وكأنها تلاعبه ولحقت بزميلتها، ومن جديد طاف بخياله الظُهُر المتألق، وشوك القراص، ودانيلو، وكوخ حارس الغابة، والفم المبتسم الذي يُعضضّ الأوراق، في ظل أشجار الدلب.

قال في نفسه: (مستحيل أن أدع الأمر هكذا) وإذ انتظر أن تغيب المرأتان عن عينيه، ذهب إلى المكتب. كان الوقت ظهراً، وكان يأمل أن يلقى مدير أعماله. كان هنا. لقد استيقظ قبل هنيهة، كان يتمطّى ويتثاءب وينظر إلى حارس الماشية الذي كان يقول له شيئاً.

- فاسيلي نيكولايفتش!

- ماذا تريد؟

- أريد أن أكلمك.

- بأمرك.

- لكن انتهِ من حديثك، قبل ذلك.

سأل فاسيلي نيكولايفتش حارس الماشية:

- ألن تحمله؟

- هو ثقيل، يا فاسيلي نيكولايفتش.

سأل أوجين:

- ما الأمر؟

- القضية... أن بقرة وضعت مولوداً في الحقول.

- لا بأس، سآمر بقَرْن حصان. قُلْ لنيكولا أن يأخذ عربة الأثقال.

خرج حارس الماشية:

بدأ أوجين كلامه وهو يحمرّ خجلاً ويُحسّ بذلك:

- اعلمْ، يا فاسيلي نيكولايفتش... إنني عندما كنت عزباً... كانت لي علاقة... لعلك سمعت...

ابتسم فاسيلي نيكولايفتش بعينيه، وأخذته الشفقة من غير شك على سيدّه، فقال:

- ذلك بصدد ستيباندا؟

- نعم، هو كذلك... إذن، اسمعْ... أرجوك... أرجوك... ألا تشغّلها بالمياومة في البيت... فهمت، هذا يسوءني كثيراً.

- لعل إيفان المستخدم هو الذي أمر بذلك.

- اتفقنا، إذن...

ثم قال أوجين ليخفي ارتباكه:

- حسناً! ما رأيك، هل نضع ما تبقى من الفوسفات.

- سأذهب إلى هناك في هذه اللحظة.

- لننه ذلك إذن.

وهدأ أوجين آملاً أنه قضى عاماً دون أن يلقاها، فسوف يستمرّ الأمرُ كذلك. (فضلاً عن ذلك فسيكلّم فاسيلي ينكولايفتش المستخدم، وسيكلّم المستخدم "ستيبانيدا"، وستفهم أنني لا أريد لقاءها) هكذا كان أوجين يحدث نفسه، وابتهج لأنه أوتي الشجاعة على مصارحة فاسيلي نيكولايفتش، وإن كان ذلك صعباً عليه. (نعم، كل شيء أفضل، كل شيء أفضل، كل شيء ولا هذا الشك وهذا الخجل). وارتعش لمجرد تذكر تلك الجريمة بالفكر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

–12–

إن المجهود النفسي الذي بذله أوجين للتغلّب على خجله وليقول لفاسيلي نيكولايفش ما قاله، قد هدّأ خاطره وبدا له الآن أن كل شيء انتهى، ولاحظت (ليز) على الفور، أنه قد عاد إلى ما كان عليه من هدوء بل لقد صار أكثر فرحاً من العادة، وفكّرت ليز: (لعله كان محزوناً من هذا الخصام بين أمَّينا... وبالفعل، فإن من الأمور الشاقة جدّاً عليه، وهو بتلك الحساسية وذلك الطبع النبيل، أن يسمع دائماً هذه التلميحات التي تنّم على العداء وسوء الذوق).

كان الجوّ جميلاً، النساء الذاهبات إلى الغابة ليضفرن أكاليل من الزهور، اقتربن بحسب العادة من درج مدخل الإقطاعي، وأخذن يرقصن ويغنين، خرجت ماري بافلوفنا وفارفارا أليكسيفنا في فساتين أنيقة، وهما تحملان مظلتيهما إلى درج المدخل واقتربنا من حلقة الرقص وكان العم وهو ماجنٌ سكير يقضي الصيف في منزل أوجين يتبعهما وهو يرتدي سترة صينية قصيرة.

وكالعادة، كان هناك حلقةً كبيرة مبرقشةٌ بالألوان الزاهية، من النساء الشابات ومن الفتيات، وكانت هذه الحلقة مركز كل شيء. فحول هذه الحلقة من جميع الجهات وكالنجوم التي انفصلت عن الكوكب الرئيسي وأخذت تدور حوله، بناتٌ صغار تماسكن بالأيدي وأسْمعن حفيف تنانيرهن الحريرية الهندية الجديدة حيناً، وحيناً آخر صبية يضحكون يطارد بعضهم بعضاً ويُدرك بعضهم بعضاً، أحياناً أخرى صبية أكبر سناً بستر زرقاء وسوداء، وقبعات وقمصان حمراء يمرّون وهم يفصمون بلا انقطاع بزر عباد الشمس، وفي بعض الأحيان الخدم أو الغرباء الذين ينظرون إلى الحلقة من بعيد.

اقتربت السيدتان من الحلقة نفسها، وبعدهما ليز بفستانها الأزرق وفي شعرها شريط باللون ذاته، وبرزت ذراعاها الطويلتان، البيضاوان وقد برز المرفقان، من الكميّن الواسعين، لم يكن أوجين يرغب في الخروج، لكنْ كان من السخف أن يغيب عن الأنظار. خرج إذن إلى درج المدخل، وسيجارته بين شفتيه، وحيّا الصبْية والفلاحين، وتحدّث مع أحدهم، وكانت النساء، أثناء هذا الوقت، يغنّين بملء حناجرهن ألحان الرقصة، ويصفقن بأيديهن ويرقصن.

قال خادمٌ وهو يدنو من أوجين الذي لم يسمع امرأته وهي تناديه:

- السيدة تناديك.

نادتْه ليز لتريه رقصة امرأة أعجبتها رقصتُها، على وجه الخصوص. كانت ستيبانيدا. كانت بتنّورة صفراء، وصدَّراها بلا كمين، وبخمار حريري، ممتلئة

الجسم قوية حمراء، مبتهجة. كانت تجيد الرقص من غير شك، لكنه لم يلاحظ شيئاً.

قال وهو يرفع نظارته ويعيدها:

- نعم، نعم، نعم، نعم...

فكّر: (هكذا فأنا لا أستطيع التخلّص منها)، لم يكن ينظر إليها، لأنه كان يخاف سحرها، وكان ما يشاهده منها خلسةً يبدو له بسبب ذلك، على وجه التحديد، شديد الجاذبية وفضلاً عن ذلك، لقد خمّن من نظرتها البّراقة أنها كانت تراه وتعلم أنه معجبٌ بها. بقي فقط المدة اللازمة لكي لا يبدو قليل التهذيب، وحين شاهد أن فارفارا أليكسيفنا تناديه وتنعته بتكلّف وتزييف (يا عزيزي)، أدار ظهره، وانصرف، انصرف عائداً إلى البيت، انصرف لكي لا يراها بعدُ، لكنه عندما صعد إلى الطابق العلوي، دنا من النافذة دون أن يعلم لماذا وكيف، وظل قربها مدة بقاء النسوة قرب درج المدخل، وهو ينظر إلى (ستيباندا) ويشربها بعينيه، ثم هرب قبل أن يلمحه أحد، وخرج إلى الشرفة وهناك أشعل سيجارةً، وذهب إلى الحديقة وكأنه يريد أن يتنزه في الاتجاه الذي اتجهت إليه. ولم يخطُ خطوتين في الممر. حتى لمحَ خلال الأشجار، الصدار بلا كمين على أرضيّة ورديه، والخمارَ الأحمر. كانت ذاهبة إلى جهة ما مع امرأة أخرى. أين كانت تذهب؟ وفجأة استبدت بقلبه شهوةٌ رهيبةٌ محرقة وكأن للشهوة يدٌ. وكأنما كان يخضع لإرادة غريبةٍ عنه، عاد إلى الوراء واتّجه إليها.

سمع أوجين خلفه صوتاً يقول:

- أوجين إيفانوفتش! أوجين إيفانوفتش! إن بي حاجة إلى معروفك.

شاهد أوجين العجوزَ ساموكين، وهو مستخدم يحفر بئراً عنده. تمالك نفسه واستدار فجأة واتجه صوبه، وعندما انتهيا من الحديث، اِلتفت وشاهد المرأتين في الأسفل متجهتين بوضوح نحو البئر أو متخذتين هذه الوجهة ذريعة لهما، لكنهما لم تبقيا طويلاً وعادتا إلى الحلقة.

عندما ترك أوجين العجوز ساموكين، رجع إلى البيت مهدوداً وكأنه ارتكب جريمة. أولاً لقد فهمته، وفكّرت أنه يرغب في أن يراها، وكانت ترغب في الشيء نفسه، ثانياً إن المرأة الأخرى، آنا يروكوروفا، كانت تعلم بطبيعة الحال ذلك كله والشيء الرئيسي أنه كان يحسّ نفسه مهزوماً. كان يعلم أنه لم يعد مالكاً لإرداته، وأنه كان مدفوعاً بقوة أخرى، وأنه نجا اليوم بأعجوبة وأنه سيسقط غداً أو بعد غد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

نعم، لقد هلك لم يكن يفهم الأمور على نحو مختلف، إنه يخون زوجته المُحبة في الريف مع فلاحة، وبمعرفة الجميع! أليس هذا الهلاك، الهلاك الرهيب. الذي لا حياة بعده. (لا، يجب أن أتخذ التدابير المناسبة). قال في نفسه: (إلهي! إلهي! ماذا يجب أن أفعل؟ أأموت هكذا؟ أليس من وسيلة لردّ ذلك؟ لا بد مع ذلك من عمل شيء لئلا أفكّر فيها).

ألّا يفكّر فيها! وفي الحال كان يفكّر فيها، كان يراها أمامه، في ظل أشجار الدلب.

تذكّر أنه قرأ قصة شيخ أراد أن ينجو من إغواء امرأة كان عليه أن يباركها بيده ليشفيها، لقد كان يضع يده الأخرى على نار حامية. (نعم، أنا مستعد لأن أحرق يدي ولا أسقط). ونظر حوله فرأى أنه وحده في الغرفة، فأشعل عود كبريت وقرّب عود كبريت وقرّب أصابعه منه، وقال في نفسه ساخراً: (حسناً! فكّر فيها الآن). وعندما أحسّ بالحرق، سحب أصابعه المسوَدّة، ورمى علبة الكبريت وضحك من نفسه: ياللغباء! ليس هذا ما يجب فعلُه. يجب أن أتخذ تدابير لكي لا أراها بعد.. أن أُسافر أو أن أبعدها.. نعم أبعدها، أعطي مالاً لزوجها كي يقيما في قرية أخرى. سيعلم الناس ذلك... وسيتحدثون عنه... طيّب! هذا أفضل! كلَّ شيء ولا هذا الخطر. نعم يجب أن أفعل ذلك). كان يقول ذلك في نفسه دون أن يرفع عينيه عنها، وتساءل فجأة: (إلى أين تذهب؟) خُيِّل إليه أنها شاهدته قرب النافذة، وبعد أن رمته بنظرة، انصرفت متأبطة ذراع امرأة، واتجهت إلى الحديقة، هي تخطر بيدها الأخرى.

سار أوجين نحو المكتب، وهو لا يعلم لماذا. كان فاسيلي نيكولايفتش بسترته الرسمية الجديدة، وبشعره المدهون، يتناول الشاي مع امرأته ومدعّوةٍ في خمار سميك.

- قلْ لي، فاسيلي نيكولايفتش، أأستطيع أن أحدّثك لحظة؟.

- أرجوك. لقد انتهينا.

- لا، الأفضل أن نذهب إلى الخارج.

- على الفور. أعطني قبعتي، تانيا، وغطّى السماور.

قال ذلك لامرأته وخرج وهو مبتهج النفس.

ظن أوجين أنه لاحظ أن فاسيلي نيكولايفتش قد شرب قليلاً، لكن ذلك لا يهم، بل ربما كان ذلك أفضل هكذا، ولعله سوف ينظر إلى وضعه بتعاطف أكبر.

- يا فاسيلي نيكولايفتش... أود أن أحدّثك عن هذه المرأة من جديد.

- ما الأمر؟ لقد أمرت بعدم تشغيلها بعد الآن.

- كلا... فكّرت، على العموم... وعن ذلك أردتُ أن أحدّثك وأطلب مشورتك... ألا نستطيع أن نُبعد الأسرةَ كلها؟

سأل فاسيلي نيكولايفتش سؤال امرئٍ خُيِّل إلى أوجين أنه لاحظ عليه الاستياء والتهكّم: - نُبعدهم إلى أين؟

- لكني فكّرتُ... يمكننا أن نُعطيهم مالاً أو أرضاً في (كولتوفوسكوي)... بشرط ألا تكون هنا...

- لكنْ كيف نبعدهم؟... كيف نقتلعهم من أرضهم؟...

- وماذا يهمك من ذلك؟ في أي شيء هي تضايقك؟

- آه؟ فاسيلي نيكولايفتش افهم أن الأمر سيكون رهيباً لو عرفت امرأتي.

- لكنْ منْ سيقول لها ذلك؟

- وكيف أعيش مع هذه الفكرة... على العموم هذا شاقٌ...

- ممَّ تَقْلقُ؟ مَنْ يتذكّر أخطاء قديمة فستُقلع عينه، ومن لم يُخطئْ أمام اللّه ليس مذنباً أمام القيصر.

- ومع ذلك من الأفضل إبعادهم، ألا يمكنك أن تحدّث زوجها بذلك؟

- لكن، لا داعي للتحدّث... أوه أوجين إيفانوفتش، لماذا تحشو رأسك بذلك كله! ذلك ماض، منسيٌّ!... كل شيء يقع... أما الآن فمن يجرؤ أن يطولك بسوء؟

- بالرغم من ذلك... تكلّمْ...

- طيّب. سأكلّمه مع أنني مقتنع أنْ لا نتيجة من ذلك.

هدّأ هذا الحديث أوجين قليلاً، ولاسيما لإحساسه بأنه عظّم الخطر بسبب انفعاله، أكان ذاهباً إلى موعد معها؟ كلا، كان ذاهباً ليتنزه في الحديقة، وجاءت هي إليها مصادفة.

في يوم عيد الثالوث، بعد الغذاء كانت ليز في الحديقة وإذْ أرادت أن تقطع حفرةً صغيرة لتمضي إلى المرج، حيث أراد زوجُها أن يريها النَفَل، زلّت قدمُها ووقعت. وقعتْ بهدوء على جنبها، وقالت آه! وعلى وجهها لم يلمح زوجُها تعبيراً عن الخوف فحسب بل وعن الألم أيضاً، أراد أن يُنهضها، فنحّتْه بيدها.

قالت وهي تبتسم بضعف وتنظر إليه كما خُيِّل إليه، كالمذنبة: - لا، أوجين، انتظر قليلاً، ليس هناك سوى أن قدمي انفتلتْ.

لامتها فارفارا ألكسيفنا:

- لقد أفْهمتُك منذ زمن بعيد: هل يمكن أن نثبَ فوق الحفر في مثل هذا الوضع!

- لا، ماما، ليس هذا شيئاً ذا بال. سأنهض في الحال.

نهضت بمساعدة زوجها، لكنها شحبتْ، في اللحظة نفسها، امتقع وجهها وارتسم الرعبُ عليه. وهمست إلى زوجها لكي لا تسمع أمها: - نعم أشعر أنني لستُ بحالة حسنة.

صاحت فارفارا أليكسيفنا:

- آه! يا إلهي! ماذا فعلت؟ كنتُ أنصحكِ بعدم المشي. انتظري! سأُرسل ناساً. يجب ألا تمشي. يجب أن تُحمَل.

قال أوجين وهو يطوِّق خصرها بذراعه اليُسرى:

- ألستِ خائفة، ليز؟ سأحملكِ، تعلقّي بعنقي، امسكيني، هكذا.

انحنى ووضع ذراعه تحت ساقيها ورفعها. لن أنسى أبداً تعبير الألم والسعادة الذي انعكس في هذه اللحظة على وجهها.

سألته وهي تبتسم:

- ألستُ شديدة الثقل، ياعزيزي، أمي تركض وتتطّلع.

انحنت عليه وقبَّلته. كانت ترغب رغبة واضحة في أن ترى أمُّها كيف يَحْملها، صاح أوجين بفارفارا ألكسيفنا كي لا تستعجل، قائلاً أنه سيحملها حملاً أميناً، فوقفتْ فارفار ألكسيفنا واشتدّ صراخها: - ستوقعها، هذا مؤكّد! تريد أن تقتلها! لا ضمير لك!

- لكني أحملها جيداً.

- لا أريد... لا أريد أن أرى كيف ستقتل ولدي!

وهربت عبر الممر.

قالت ليز وهي تبتسم:

- لا قيمة لذلك، كلُّ ذلك سيزول.

- بشرطِ ألا يكون هناك آثارٌ سيئةِ، كالمرة الماضية.

- لا، لم أقصدْ هذا، قصدْتُ ماما. أنت مُتعب، استرحْ.

مع أن حمل أوجين كان ثقيلاً، فإنه حملها بفرح مليء بالاعتزاز، حتى البيت، وأبى أن يتركها للخادمة الفرّاشة وللطاهي اللذين أرسلتهما فارفارا ألكسيفنا للقائهما. وحملها إلى غرفة نومها وحطها على سريرها.

قالت:

- حسناً! انصرفْ. سنتدبر الأمر مع آنوشكا.

وجذبت يده فقبَّلها.

هُرعت ماري بابلوفنا أيضاً من جناحها، عُريت لنير من ملابسها ووضعت في سريرها. كان أوجين جالساً في الصالون ينتظر وفي يده كتاب. مرّت فارفارا ألكسيفنا أمامه وقد بدت كئيبةً، تتدفق لوماً حتى ارتعب منها، فسأل: - وما الأمر؟

- الأمر؟ لماذا تسألني الأمر لعلك رغبتَ فيه عندما أجبرتَ امرأتكَ على القفز فوق الحفرة.

صاح:

فارفارا ألكسيفنا! هذا غير مقبول! إذا كنتِ تريدين أن تعذبي الناس وأن تسممّي حياتهم... (كان سيقول: هيّا اذهبي إلى مكان آخر! لكنه تمالك نفسه). كيف لا تخجلين من التصرّف هكذا...

- فات الأوان، الآن!

واجتازت الباب وهي تنفض قبعتها بحركة انتصارية، كان السقوط بالفعل سيئاً جدّاً، لقد انفتلت القدم على نحو غير مستقيم وكان يُخشى من الإجهاض، كان الجميع يعلمون أن لا حيلة لهم في الأمر، ومن الواجب أن يتركوها تستريح بهدوء، ومع ذلك فقد أُرسلَ من يُحضر الطبيب.

كتب أوجين إلى الطبيب:

- جزيل الاحترام نيكولا ستيبانوفيتش، كنتَ دائماً عظيم الطيب بالنسبة إلينا، فآمل ألا ترفض مدَّ يد المساعدة إلى زوجتي، إنها... إلخ).

فلما انتهى من كتابة الرسالة ذهب إلى الاصطبل ليلقي أوامره بصدد الجياد والعربة، يجب إعداد جياد لإحضار الطبيب، وجياد أخرى لإعادته، كل ذلك يجب أن يكونَ مرتبّاً ترتيباً حسناً. ولما نفَّذ كل شيء وأرسل الحوذي، عاد إلى البيت. كانت الساعة نحو العاشرة مساءً. كانت امرأته مضطجعةً، وكانت تقول إنها بخير، وهي لا تشكو شيئاً وكانت فارفارا ألكسيفنا جالسةً أمامِ

المصباح تحجبها عن ليز كومةٌ من الدفاتر الموسيقية، تحوك غطاءً كبيراً أحمر، وبدا عليها كأنها تقول بوضوح إن السلام لا يمكن أن يستتبّ بعد أن جرى ما جرى. (يستطيع الآخرون أن يفعلوا ما يحلو لهم، أما أنا فعلى الأقل قمتُ بواجبي).

رأى أو جين ذلك لكنه تظاهر بأنه لم يلحظه، وروى بلهجة مرحة، طلقة، أنه بعث بالجياد وأن الفرس كافوجكا ممتازة وكذلك جواد العارضة في الجهة اليسرى.

قالت فارفارا ألكسيفنا وهي تنظر بانتباه خلال نظَّارتها، إلى حياكتها التي قرّبتها من المصباح: - طبعاً، الوقت مناسبٌ لتجريب الجياد، عندما نكون بحاجة إلى إسعاف مباشر. ولعل الطبيب سيُرمي أيضاً في حفرة.

- لكنْ، على كل حال، كان لا بد من إحضار... فعلت ما اعتقدتُ أنه أحسنُ ما يُفعل.

- نعم، وأنا أذكر كيف أن جيادك كادت ترميني على درج المدخل...

كان ذلك من اختراعها الذي يعود إلى زمن بعيد، لكن أوجين هذه المرة، تغافل وقال إن الأمور لم تجرِ تماماً كما تزعم.

لم يكن عبثاً ما قلته دائماً... وكم من مرة قلت للأمير أن ليس شيء أشقّ من أن يعيش المرء مع ناس ظالمين ومزيّفين. أتحمل كل شيء، لكنني لا أتحمل هذا.

قال أوجين:

- إن كان هذا شاقاً على أحد، فهو عليّ قبل غيري.

- نعم، هذا واضح.

- ماذا؟

- لا شيء، إني أعدّ قُطَب الحياكة.

في هذه اللحظة، كان أوجين قرب السرير، كانت ليز تنظر إليه، كانت تمسك يده وتشدّ عليها بإحدى يديها النديتين كانتا فوق الغطاء. وكانت نظرتها تقول: (تتحمّلها من أجلي لن تمنعنا من أن يحب أحدنا الآخر).

همس إليها وهو يقبِّل يدها الطويلة الرطبة، ثم عينيها الجميلتين اللتين أغمضتا تحت قبلته: - لن أفعل شيئاً.

وسأل:

- هل سيصيبك الشيء نفسه، كيف تشعرين؟

- إنه لشيءٌ رهيب أن يخدع الإنسانُ نفسه لكنني أشعر أنه يحيا وأنه سيحيا.

قالت ذلك وهي تنظر إلى بطنها.

- آه! إنه لشيء رهيب، إنه لشيء رهيب، حتى التفكير في ذلك!

ورغم إلحاح ليز لكي يذهب إلا أنه قضى الليل بجنبها، ولم تغمض عينُه إلا لماماً، وكان مستعداً، في كل لحظة للعناية بها. لكن الليل كان مريحاً، ولو لم يكونا ينتظران الطبيب فربما كانت ستنهض. وصل الطبيب أثناء الغذاء. وشرح لهم أنه إن أمكن لحوادث مشابهة أن تسبب الخطر، فليس هناك مع ذلك إشارات إيجابية، وأنه لا يمكن افتراض هذه الفرضية أو تلك من ثمّ في غياب الإشارات المضادة، والنتيجة أن من الواجب بقاؤها مضطجعة وأن تناول هذا الشيء أو ذاك، هذا مع أن الطبيب قد صرح بأنه عدو العقاقير، وفضلاً عن ذلك، ألقى على فارفارا ألكسيفنا محاضرة حقيقية عن تشريح المرأة، وكانت تصغي إليه وهي تهز رأسها بوقار.

وبعد أن تلقى أجرته التي دُسّتْ في راحة كفه، كالعادة، رجع، وظلت المريضة أسبوعاً في سريرها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

–14–

كان أوجين يقضي معظم وقته قرب سرير امرأته، يُعنى بها ويحدّثها ويقرأ لها ويتحمّل، وهو شيء أجدر بالتقدير، غمزات فارفارا ألكسيفنا، دون أن يفوه بكلمة، عارفاً كيف يحوِّلها إلى موضوع للمزح.

لكنه لم يكن بوسعه أن يلزم بيته، أولاً كانت امرأته تَصْرِفُه قائلة إنه سيصاب بالمرض إن ظلّ قربها طوال الوقت، ثم إن الاستثمار كان يُحتم في الغالب حضوره، لم يكن يستطيع أن يبقى في البيت، فتارةً يذهب إلى الحقول، وتارةً أخرى إلى الغابة، وحيناً إلى الحديقة، وحيناً آخر إلى مخزن الحبوب، وكانت صورة ستيبانيدا الحية لا الفكرة وحدها تلاحقه حيثما ذهب، حتى إنه لم ينجح في نسيانها إلا نادراً. ولم يكن هذا شيئاً ذا بال، فلربما كان سيتغلّب على هذا الإحساس الأسوأ من كل شيء هو أنه كان يلقاها الآن في كل لحظة، وهو الذي كان يقضي شهوراً دون أن يراها. لاشك أنها أدركت أنه يرغب أن يُعيد علاقاته القديمة فأخذت تسعى إلى لقائه. ولكن بما أنهما كليهما لم يقولا شيئاً، فإنهما لم يضربا موعداً، واكتفيا بما صارا إليه من تلاقٍ.

كانت الغابة خير مكان لذلك، فإليها كانت النساء يذهبن، ومعهن أكياس، ليبحثن عن العشب لأبقارهن. كان أوجين يعلم ذلك، وكان يمرّ كل يوم أمام الغابة، كان يقول في نفسه كل يوم إنه لن يذهب وكان يتّجه، كل يوم، نحو الغابة مصغياً إلى رنين الأصوات، ومتوقّفاً، خفّاق القلب خلف دغل مترصداً أن تكون هي. ما حاجته إلى أن يعرف إن كانت هي؟ لم يكن يعلم ذلك. وحتى لو كانت هي، وحتى لو كانت لوحدها، لما ذهب إلى ملاقاتها - على ما أعتقد - ولهرب منها، لكنه كان بحاجة إلى أن يراها.

لقيها ذات مرة، فبينما كان يهمّ بدخول الغابة، خرجت هي مع امرأتين أخريتين، وعلى ظهرها كيسٌ ثقيل مملوء بالعشب، ولو قَبْلَ لحظة، فلربما كان قد لقيها في الغابة، أما الآن فكان مستحيلاً عليه، أمام النساء الأخريات، أن تعود إلى الغابة وبالرغم من هذه الاستحالة التي أدركها، اختبأ طويلاً وراء دغل أشجار الجوز، معرضاً نفسه لخطر إثارة انتباه النساء الأخريات. لم تعد هي، طبعاً، لكنه ظل هنا زمناً طويلاً. إلهي! بأية جاذبية كان خياله يعرضها عليه! ولم يكن ذلك مرة واحدة، بل خمس مرات، ست مرات، وفي كل مرة على نحو أقوى، لم تَبْدُ له جذّابة قَطُّ كما هي الآن، و لم تملك عليه نفسه بأكملها قَطُّ كما ملكتها الآن.

كان يشعر أنه لم يعد مالكاً لنفسه، وأنه يكاد يصبح مجنوناً، لم تَخفْ قسوته نحو نفسه، على العكس، لقد أدرك بشاعة رغباته، بل وأفعاله: لأن انتظاراته في الغابة أفعال، كان يعلم أنه يكفيه أن يلقاها في مكان ما، في مكان مظلم،

وأن يمسّها ليستسلم إلى هواه. كان يعلم أن الذي يكبحه هو خجله أمام الناس وأمامها، وربما أمام نفسه. وكان يعلم أنه يبحث عن الشروط التي لا يُلاحظُ فيها ذلك الخجل: الظلام أو مداعبةٌ تَخْنق فيه هذا الخجل بالشهوة الحيوانية. كان ينظر إلى نفسه إذن على أنه مجرم قذر، فيحتقر ذاته ويكرهها بكل قوى نفسه. كان يكره ذاته لأنه لم يستسلم بعد. وكل يوم يدعو اللّه أن يقويه، وأن ينقذه من الهلاك، كان كل يوم يصمم ألا يخطو خطوةً أخرى، ألا ينظر إليها، أن ينساها، كان كل يوم يتخيّل سبلاً للخلاص من هذا الحصار ويضعه موضع التطبيق.

لكن كل شيء كان بلا جدوى.

كان أحد السبل أن يشغل نفسه بلا انقطاع، سبيلٌ آخر: العملُ الجسدي والصيام، سبيل ثالث: التحليلُ الواضح للخجل الذي سينصبّ على رأسه عندما يعرف الجميع ذلك، بما فيهم امرأته وحماته. كان يفعل ذلك كله، ويبدو له أنه انتصر، لكن ما إن يأتي الظهر، موعد لقاءاتهما القديمة، الساعة التي يلقاها فيها حاملة كيس العشب، حتى يمضي إلى الغابة.

هكذا انقضت خمسة أيام شاقة، لم يكن يراها إلا من بعيد، ولم يقترب منها مرةً واحدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

–15–

تعافت ليز شيئاً فشيئاً، وبدأت تمشي، وأخذت تقلق من التغيّر الذي أصاب زوجها والذي لم تفهمه.

سافرت فارفارا ألكسيفنا لبعض الوقت، و لم يبقَ عندها سوى العم وماري بافلوفنا.

كان أوجين في حالةٍ من نصف الجنون، عندما هطلت أمطارٌ امتدت أياماً، كما يحدث بعد عواصف حزيران، شوّشت هذه الأمطار جميع الأعمال، لم يعد ممكناً جمع السماد بسبب الرطوبة والوحل، ولزم الفلاحون بيوتهم، ولقي الرُعاةُ كثيراً من المشقة لإعادة القطعان إلى الإصطبلات، وشردت بقرات و خراف إلى شتى الأقنية، وكانت النساء المختمرات بخمرهن يخبطن في الوحل حافيات بحثاً عن بقراتهن الهاربات، وتشكّلت على الطرقات المجاري، وتبلل أوراق الأشجار والعشب وفاضت الأنهار والمستنقعات.

كان أوجين في بيته، مع امرأته التي كانت متضايقة في هذا اليوم تضايقاً شديداً، وسألت زوجها عدة مرات عن سبب تغير مزاجه، وفي كل مرة كان يجيبها بحنق أنْ ليس به شيءٌ. كفّتْ عن سؤاله، لكنها كانت حزينة، كان الجميع جالسين في الصالون بعد الغذاء. كان العم يروي للمرة المئة قِصصاً من اختراعه عن مغامراته الاجتماعية، كانت ليز تحوك صدريةً وتتنهّد وتشكو من رداءة الطقس ومن وجع الكلى، نصحها العم أن تنام وطلب هو خمراً، كان يدخن ويقرأ كتاباً دون أن يفهم شيئاً، قال في نفسه: (نعم، يجب أن أذهب لأرى ماذا يجري). ونهض ليخرج.

- خذ مظلَّتك.

- لا، عندي المعطف الجلدي، ولن أذهب بعيداً.

احتذى جزمته، وارتدى معطفه الجلدي، ومضى إلى المصنع. لكنه لم يقطع عشرين خطوة حتى برزتْ للقائه، رافعةً تنّورتها فوق ربلة ساقيها البيضاوين. كانت تسير وهي تمسك بيديها الخمار الذي كان يغطي رأسها ويديها.

سألها لأول وهلة دون أن يتعرفّها:

- ما بكِ؟

فلما عرفها كان الأوان قد فات. توقفّت، ونظرت إليه طويلاً وهي تبتسم.

- أبحث عن عجل صغير، أين تذهب في هذا الطقس الرديء؟

سألته وكأن كلاً منهما يرى الآخر كل يوم.

قال فجأة دون أن يعلم كيف، وكأن إنساناً آخر لفظ هذه الكلمات: - تعالي إلى الضيعة.

أشارت بعينيها إشارة القبول ومضت إلى الحديقة، نحو الكوخ فتابع هو طريقه وبنيّته أن يدور حول أجمة الليلك وأن يلحق بها.

صاح أحدُهم من خلفه:

- يا سيدي! السيدة تطلب أن تأتي للحظة.

كان ميشيل خادمهم.

فكّر أوجين: (يا إلهي! أنقذتني للمرة الثانية) فاستدار من فوره إلى البيت. أرادت ليز أن تذكره بالدواء الذي وعد به امرأةً مريضة، ورجته أن يأخذه.

أثناء البحث عن الدواء وتحضيره، انقضت نحو خمس عشرة دقيقة وحين خرج بعد ذلك لم يجرؤ أن يذهب مُباشرةً إلى الضيعة خوفاً من أن يُلمَح من البيت. لكنه ما إن اختفى عن النظر حتى دار دورة واتجه إليها. كان يراها في خياله وسط الضيعة مبتسمة بفرح. لكنها لم تكن هناك و لم يدلّ شيءٌ على أنها أتت إليها. أخذ يفكّر في أنها لم تأتِ، أنها لم تسمع أو تفهم كلماته التي همسها همساً بين شفتيه خوفاً من أن تسمعها أو لعلها لم تشأ أن تأتي. (ولماذا ترتمي على عنقي؟ إن لها زوجها، أنا وحدي الحقير إلى هذا الحد: إن لي امرأة طيبة، وأنا أركض وراء أُخرى). هكذا كان يُفكّر وهو جالس في الضيعة، في موضع يسيل فيه الماء. ما كان أسعدني لو جاءت! كما سنكون وحدنا هنا في المطر. أمتلكُها مرة واحدة على الأقل وليكن، بعد ذلك، ما يكون! و تذكّر (آه! نعم، لو جاءت لتركت آثاراً). نظر إلى العشب إلى موضع دربٍ صغيرة لا عشب فيه ولمح أثراً حديثاً لرجل حافية. نعم لقد جاءت الآن، انتهى الأمر. سألقاها أياً كان المكان، سأذهب إليها. سأذهب إلى بيتها ليلاً).

ظل جالساً في الكوخ زمناً طويلاً وخرج منه مضطرباً ومنهوكاً، أوصل الدواء وعاد إلى البيت ونام في غرفته في انتظار العشاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

–16–

قبل العشاء جاءت ليز إليه، محاولة أبداً أن تعثر على ما يمكن أن يكون السبب في انزعاجه. قالت له إنها قررت أن تظل هنا وأنها لن تذهب إطلاقاً إلى موسكو حيث يُراد لها أن تذهب للولادة، وذلك خوفاً من أن يزعجه سفرها. كان يعلم مدى خوفها من الولادة وخشيتها من عدم وضع ولد جميل، فرقَّ حين تبيّن السهولة التي بها تضحّي بكل شيء في سبيل حبها له. كان كل شيء طيباً جدّاً، فرحاً جدّاً، نقياً جدّاً في البيت، أما في نفسه فكان الكثير من الوحل والجُبن والفظاعة! تألم أوجين طوال المساء وهو يفكّر في أنه، بالرغم من اشمئزازه الصادق إزاء ضعفه، وبالرغم من عزمه الثابت على الانتهاء مما هو فيه، سيعود غدًا إلى الشيء نفسه. قال في نفسه وهو يذرع غرفته طولاً وعرضاً: (لا، هذا مستحيل! لا بدّ أن توجد وسيلةٌ ما ضد ذلك. يا إلهي! ما العمل؟) دقّ الباب أحدُهم على نحو غير معتاد. كان يعلم أنه عمه، قال: - ادخل

دخل العم مبعوثاً عند نفسه ليحدّثه عن ليز.

- أتعلم أنني لاحظت بالفعل تغيراً فيك، وأنا أدرك أن ذلك يُعذب امرأتك، طبعاً من الشاق عليك أن تترك تلك القضية الحلوة التي بدأتها، لكن ماذا بوسعك أن تفعل، أنا أنصحُك بالسفر. ستكونان أهدأ بالاً كلاكما. لكن، أتعلم إني أنصحك بالسفر إلى (القرم)، فالطقس فيها جميلٌ جدّاً وهناك مُولد قدير وستكونان هناك في إبان العنب بالذات.

قال أوجين فجأة:

- يا عم! هل تَحفظ سرّاً... سرّاً مُخجلاً، رهيباً بالنسبة إليّ؟

- ماذا تقول؟ أيمكن أن تشكّ فيّ...

- يا عم، تستطيع أن تساعدني، لا أن تساعدني فقط بل وأن تنقذني - وفكرةُ إزاحة الستار عمَّ سرَّهُ لعمه الذي لم يكن يحترمه، وأنه سيظهر أمامه في أحقر مظهر، أن يذلّ أمامه، هذه الفكرة بدت ممتعةً له. كان يحسّ أنه جبانٌ، مذنبٌ، وكان يريد أن يُعاقب نفسه.

قال العم وقد ظهر عليه السرور من هذه المناسبة التي سيُسَر فيها إليه بسرٍّ، بسر مخجل، والتي يمكن أن يكون نافعاً فيها: - تكلّمْ، يا صاحبي، أنتَ تعلم كم أُحبَّك.

- قبل كل شيء، ينبغي أن أقول لك إنني فاسق، نذل، جبان، حقير...

قال العم، وهو ينفخ حنجرته:

- ماذا تقول؟

- كيف لا أكون حقيراً عندما أريد أنا، زوج ليز، ليز - يجب أن نعرف نقاءها وحبها - عندما أريد أنا زوجها، أن أخدعها مع فلاحة؟

- يعني... لماذا تريد... لم تخنها بعد...

- آوه! فإنني قد خنتُها. وإذا لم أكن قد فعلت ذلك فليس الخطأ مني... كنت مستعداً... حيلَ بيني وبين ذلك، وإلا لما عرفتُ الآن... ماذا كنتُ سأفعل.

- لكن، هيّا، أوضحْ.

- حسناً، اسمعْ، عندما كنت أعزباً. ارتكبتُ حماقة وأقمت علاقة مع امرأة من قريتنا... أي إننا كنا نتلاقى في الغابة، في الحقول.

سأل العم:

- أهي جميلة؟

قطَّب أوجين حاجبيه عند هذا السؤال، لكنه كان بحاجة شديدة إلى العون، فتظاهر بأنه لم يسمع وتابع: - حسناً، كنتُ أظن أن ذلك لا أهمية له، وأن كل شيء سينتهي عند الانقطاع عنها، وبالفعل انقطعت عنها قبل زواجي، ومضت سنة لم أرها فيها ولم أفكّر فيها (دهش أوجين حين سمع نفسه يصف حالته النفسية هكذا). ثم رأيتُها من جديد، ولا أدري كيف، وأنا أعتقد في بعض الأحيان بالسحر حقّاً، رأيتها وانسل الدود إلى قلبي وأخذ يَقْرضه. فشتمتُ نفسي وأدركت فظاعة عملي، أي فظاعة ما كنتُ مستعداً لارتكابه في أول فرصة، وبالرغم من ذلك، فما أزال مستمراً في البحث عن هذه الفرصة، كنت ذاهباً للحاق بها عندما وعتني (ليز).

- كيف، أثناء المطر...

- نعم، أنا منهوك، ياعم، وقد عَزَمْتُ على الاعتراف وعلى طلب عونكَ.

- نعم بلا شك... الأمر غير مقبول، في قريتك... سيعلم الناس ذلك... وأنا أدرك أن ليز ضعيفة وتجب مُداراتها... لكن لم في أملاكك؟.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

ومن جديد، حاول أوجين ألا يُصغي لما يقوله العم وأن يصل إلى لبّ القضيّة.

- لكنْ، أنقذْني من نفسي، هذا ما أطلبه منك. المصادفة هي التي منعتني اليوم من السقوط، لكنها تعلم الآن. لا تتركني وحدي أبداً.

قال العم:

- نعم، لكنْ هل أنت عاشقٌ إذن.

- أوه! ليس هذا هو الأمر. لا، إنها قوة تملّكتْني وهي تكبلّني. لا أدري ما أفعل. ولعلي عندما أصبح أقوى حينئذٍ...

قال العم:

- حسناً، دونك العونَ، لنذهب جميعاً إلى القرم.

- نعم، نعم لنذهبْ، وريثما يحين موعد الذهاب، سأبقى وسوف نتحدّث...

إن كون أوجين قد أفضى بسره إلى عمه، وقبل كل شيء بعذاب الخجل الذي قاساه بعد يوم المطر ذاك، رد إليه الهدوء. حُدِّد موعدُ السفر إلى (يالطة) في الأسبوع التالي. أثناء هذا الأسبوع ذهب أوجين إلى المدينة ليحصل على مال السفر، وألقى أوامره المتعلّقة بالبيت والأوامر المتعلّقة بالاستثمار في المكتب ومن جديد أصبح مرحاً مطمئناً إلى زوجته. كأنَّه يُبْعَثُ نفسياً.

سافر مع زوجته إلى (القرم)، دون أن يرى ستيباندا مرةً واحدة، منذ يوم المطر وقضيا شهرين بهناءة وقد تجمع لدى أوجين الكثير من الانطباعات الجديدة حتى بدا له الماضي كله وكأنه اختفى من ذاكرته إلى الأبد. ولقيا في (القرم) معارف قديمة، وارتبطا بهم ارتباطاً أوثق، وأنشأ أيضاً علاقات جديدة. كانت الحياة هناك عيداً مستمراً، في نظر أوجين وكانت فضلاً عن ذلك واعظة له ومفيدة جدّاً، عقد علاقة مع مارشال النبلاء القديم في مقاطعتهما، وهو رجل متحرر ذكي، أحبّ أوجين وحاول أن يشدّه إلى نفسه.

في أواخر آب وضعت ليز بنتاً جميلة. صحيحة الجسم وكانت الولادة غير منتظرةٍ وسهلةً جدّاً، وفي أيلول عاد الزوجان إلى بيتهما وقد اصطحبا معهما طفلة ومرضعاً، لأن ليز لن تستطع أن تُرضع. عاد أوجين إلى بيته سعيداً كليّاً بعد أن تخلص تماماً من الهموم القديمة، وبعد أن مرَّ بالرعب الذي يمر به الأزواج أثناء وضع نسائهم وأخذ يمسكه بين ذراعيه، فكان إحساساً جديداً كل الجدة، لذيذاً شبيهاً بالإحساس عند الدغدغة، والجديد الآخر في حياته أن اهتماماً آخر انضاف إلى مشاغله في أملاكه - وبالفعل، فبفضل صداقته

الحميمة مع (دومشين) (مارشال النبلاء القديم) أخذ يهتم الآن بالحكومة الذاتية في الإقليم، بسبب الغرور وفي الوقت المناسب بسبب ما كان يظنه واجباً. كان مُقرَّراً أن تدعى الجمعية العامة الاستثنائية، التي سيتم فيها انتخابه. وبعد عودته من (القرم) ذهب مرةً إلى المدينة ومرة أخرى إلى بيت (دومشين). كفَّ عن التفكير في آلام الخجل والصراع، بل كان يجد صعوبة في تخيّلها. كان يبدو له ذلك ضرباً من نوبات الجنون التي لعله أُصيب بها، أحسّ أنه متحرّرٌ إلى حدٍّ لم يحسن معه الاستعلام عنها في أول مناسبة حين ألفى نفسه ذات مرة وحيداً مع وكيله، وكما كلّمه قديماً عنها، لم يخجل من السؤال عنها. سأله:

- حسناً! ماذا يفعل (بيشنيكوف)، يا سيدور، أما يزال في بيته؟

- لا، إنه ما يزال في المدينة.

- وامرأته؟

- ياه! إنها لا تصلح لشيء. وهي مستسلمةٌ للملذات الآن مع (زينوفي) لقد ضلت سبيلها كلياً.

وقع كل ما كان يرغب فيه أوجين: ظلّت الملكيّه له، وكان المصنعُ يسير سيراً حسناً، وكان محصول الشمندر رائعاً، وكان يمكن الاعتماد على عائدات وفيرة، وقد كانت ولادة زوجته سعيدة وسافرت الحماة، وانتُخب بالإجماع.

عاد أوجين إلى بيته بعد الانتخابات، هُنّئَ. وكان حريصاً على شكر المهنئين وعلى العشاء وشرب خمسة أقداح من الشمبانيا. وقد أخذ يبدو لعينيه تنظيمٌ جديد تماماً لحياته.

كان يعود إلى البيت وهو يفكّر في خططه. كان الوقت أوج الصيف والطريق جميلة والسماء صافية. عندما اقترب من بيته خطَر له كيف أنه سيشغل بين الشعب، بفضل هذا الانتخاب، الوضع الذي تمنَّى دائماً أن يحصل عليه، أي أنه يستطيع أن يخدم الشعب لا بالمحصولات التي يعطيها العملُ فحسب، بل بالتأثير المباشر أيضاً. كان يتصوّر كيف سيُحكَم عليه بعد ثلاث سنوات، كيف ستحكم عليه زوجتُه وسيحكم عليه الفلاحون، هذا الفلاح قبلاً فكّر كذلك عندما مرّ بالقرية وتطلع إلى فلاح مشتْ إلى لقائه امرأةٌ تحمل دلو ماء، توقفا ليدعا المركبة تمرّ. كان الفلاح هو العجوز بيتشنيكوف، والمرأة هي ستيباندا.

نظر إليها أوجين، وتعرفها وأحس بفرح أنه ظلّ هادئاً تماماً، كانت جذابة جدّاً، لكنها لم تثره. وصل البيت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

–18–

كانت امرأته تنتظره على درج المدخل. كانت الأمسية رائعة. سأل العم:

- حسناً! هل نستطيع التهنئة؟

- نعم. لقد انتُخبتُ.

- بديع، يجب أن نشرب الآن نخب النجاح.

في صباح اليوم التالي ذهب أوجين إلى أملاكه التي أهملها قليلاً، في الضيعة كانت تعمل آلات جديدة لدراسة القمح. كان أوجين يتجوّل بين النساء ليفحص العمل، محاولاً ألا ينتبه إليهن. لكنه لمح بالرغم من مجهوده، عيني سبيبانيدا السوداوين وخمارها الأحمر مرتين وكانت تحمل القش ونظر إليها خلسةً مرتين، ومن جديد أحس بشيء، بماذا أحسَّ لم يستطع أن يتبيّنه.

لكنه عندما عاد من جديد في اليوم التالي إلى الضيعة حيث بقي ساعتين بلا ضرورة ودون أن يكفّ عن مداعبة الصورة المعروفة والجميلة بنظره، صورة المرأة الشابة، أحس أنه هالكٌ، هالك إلى الأبد ومن جديد كانت الآلام ومن جديد كان ذلك الرعب ولم يبقَ من سبيل إلى الخلاص.

وقع ما كان يخشاه في مساء اليوم التالي ودون أن يعرف هو نفسه كيف، ألقى نفسه قرب سياج فنائه في مواجهة مخزن الكلأ، حيث كان بينهما لقاء ذات مرة في الخريف، توقف هنا وكأنه آتٍ للنزهة وأخذ يدخن سيجارة. شاهدته جارة وحين عادت إلى الموضع نفسه سمعها تقول لامرأة: (اذهبي إنه ينتظرك منذ ساعة. هيا اذهبي يا حمقاء!) لم يكن بوسعه أن يعود أدراجه لأن فلاحاً كان مقبلاً عليه، لكنه لمح امرأة كانت تركض نحو مخزن الحبوب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعادت القصةُ القديمة، لكن بقوة مضاعفة عشر مرات وفي المساء كان يفكّر، كان يفكّر في أشياء رهيبة. كان يفكّر أن حياته فارغة، مضجرة وأن الحياة الحقيقية هناك مع تلك المرأة الصلبة، القوية، المرحة أبداً. أيأخذها ويضعها في عربة أو قطار ويتوارى في السهوب أو في أميركا.. وأفكارٌ أخرى متشابهة خطرتْ له. عندما دخل الصالون بدا له كل شيء غريباً غير طبيعي.

في الصباح أيضاً نهض شجاعاً مصمّماً أن ينسى، ألا يسمح لنفسه بالتفكير لكنه قضى الصبيحة دون أن يلحظ، غيرَ مبالٍ بعمله، جاهداً في التخلص منه. ما كان يبدو له من قبل مهماً، ما كان يُبهجه بدا له تافهاً. لقد كان يسعى لا شعورياً إلى الإفلات من عمله، بدا له ضرورياً أن يتخلص من هموم الأشغال ليتفرّغ للتفكير في كل شيء. ولذلك تخففّ منها وظل وحده. لكنه حالما بقي وحده ذهب يطوّف في الحديقة والغابة. وكانت جميع هذه المواضع مدنّسة بالذكريات، الذكريات التي استأثرت به كلّه. كان يمشي في الحديقة ويقول في نفسه إن عليه أن يقرّر شيئاً، لكنه لم يكن يفكر في شيء وكان ينتظرها بجنون ولا شعورياً كان يأمل أن تشعر بمعجزة من المعجزات، كم يشتهيها فتأتي إلى هذا المكان أو إلى مكان آخر لا يراهما فيه أحد، تأتي في الليل عندما يغيب القمر والناس، أن تأتي في مثل هذه الليلة فيمتلك جسدها.

قال في نفسه: (نعم، نعم، هو ذاك، لقد لهوتُ من أجل الصحة مع امرأة سليمة صحيحة الجسم... لا، بالطبع، لا نستطيع أن نلعب هذا اللعب معها، كنت أظن أنني ملكتُها فإذا بها هي تملكني، تملكني ولا ترخيني. كنت أظن نفسي حرّاً و لم أكن كذلك، خدعتُ نفسي بنفسي عندما تزوجتُ، كان كل شيء غباءاً وكذباً. فمنذ اللحظة التي ملكتها فيها أحسستُ بشعور جديد... الشعور الحقيقي للزوج، نعم لا بد أن أعيش معها... أي حماقة أفكر فيها!) وهتف فجأة: (لا يمكن لذلك أن يكون يجب أن أفكر بوضوح في كل شيء).

قصد الحقول وأخذ يفكّر. (نعم، هناك حياتان ممكنتان، بالنسبة إليّ: إحداهما تلك التي بدأتها مع ليز، المهمات العامة، الاستثمار، الولد، احترام الناس. ولكي أكمّل هذه الحياة، يحب ألا تكون ستيبانيدا يجب إبعادُها كما كنتُ أقول أو يجب أن تختفي على نحو ما. الحياة الأخرى هي التالية: انتزاعها من زوجها، وإعطاؤها المال وتحدّي الخجل والعيش معها... لكن ينبغي حينئذٍ ألا تكون ليز ولا ميمي (الطفلة) موجودتين... لا، لماذا... الولد لا يُعيق... لكن يجب أن تختفي ليز، أن تذهب، أن تعلم، أن تلعنني وتذهب... أن تعلم أنني تخليّت عنها من أجل فلاحة، وأنني خادعٌ جبان... لا، إن هذا لشديد الفظاعة! لا، ذلك لا يمكن أن يكون!... نعم، لكن ذلك يمكن أن يُدبّر بطريقة أخرى، يمكن أن تقع

ليز مريضة... وتموت... فاذا ماتت صار كل شيء على ما يرام. (طيب!... شقيّ! لا، إذا كان لا بد أن تموت إحداهما فلتكن الأخرى. وإذا ماتت ستيبانيدا سيكون الأمرُ حسناً... نعم، هكذا تُسمّم تُقتلُ النساء العشيقات. أتناول مسدساً، وأستدعيها، وبدلاً من القبلات... "بان" في الصدر وينتهي كل شيء... إنه الشيطان! نعم الشيطان حقّاً. لقد امتلكتني بالرغم من إرادتي... أقتلها! نعم... وماذا سيجري لو تركت الأشياء كما هي؟ سيجري أنني سأعاهد نفسي من جديد ألّا أراها بعدُ. أن اتخلى عنها، لكنني سأقول ذلك قولاً فقط. وفي المساء سأنتظرها وستعلم وتأتي... إما أن يعلم الناس بذلك ويخبرون امرأتي، وإما أن أنبئها أنا نفسي لأنني لا أستطيع أن أكذب ولا أعيش هكذا. لا أستطيع... سوف يُعلَم كل شيء... كل الناس سيعلمون، (باراشا) والحداد... فهل يمكن العيش هكذا؟ لا يمكن... ليس هناك سوى مخرجين: أن أقتلها أو أن أقتل امرأتي... أو أيضاً... نعم... هناك مخرجٌ ثالث: (أن أقتل نفسي) قال ذلك بصوت منخفض، وفجأة سرت على جلده قشعريرةٌ. (نعم أنتحر، وحينئذٍ لا تبقى حاجة لقتلهما).

كان يرتعش من الهول، وذلك لأن هذا الحل بالذات كان الحل الممكن الوحيد.

(كان عندي مسدّس... أأقتلُ نفسي؟ هذا شيء لم أفكّر فيه قَطُّ... كم سيكون ذلك غريباً...).

رجع إلى البيت إلى غرفته، وسرعان ما فتح الدرج الذي فيه مسدّسه، لكن قبل أن يتسنّى له إخراجه من غلافه دخلت امرأته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

–20–

ألقى صحيفةً على المسدس. قالت، وهي تنظر إليه قلقةً:

- الشيء نفسه دائماً؟

- ماذا؟ أي شيء هذا؟

- التعبيرُ الرهيب الذي كان قديماً، عندما أبيتَ أن تقول لي... قل لي، يا حبيبي، ما بك... أرى أنك تتألم، تكلّم هذا يخفّف عنك... كل شيء ولا آلامك. أعلم أن ذلك لا يمكن أن يكون شيئاً سيئاً...

- تعتقدين ذلك؟

- تكلّم، تكلّم

ابتسم ابتسامة حزينة:

- أتكلّمُ؟... لا، هذا مستحيل... على كل حال، ليس عندي ما أقوله.

ربما كان سيقول لها كل شيء، لكن المرضع دخلت في هذه اللحظة وسألت إن كان ممكناً أن تذهب للنزهة.

خرجت ليز لتلبس الطفلة:

- ستقول لي إذن... سأعود حالاً.

- نعم... ربما...

لن تنسى أبداً تلك الابتسامة الأليمة التي تفوَّهَ معها تلك الكلمات.

خرجت على عجل، خروج المسيئة، تناول الغلاف وأخرج المسدّس (أهو معبّأ؟ لكن منذ زمن طويل.. أطلقتْ منه رصاصة... حسناً! فليكنْ ما يكون!

أسند المسدس إلى صدغه، تردّد لحظة لكنه سرعان ما تذكر ستيباندا، وتصميمه على ألا يراها، والصراع والتجربة والسقوط، والصراع من جديد فارتعش من الهول؟ (لا، هذا أفضل) وضغط على الزناد.

عندما هُرعت ليز إلى الغرفة، ولم يكن يتسنى لها النزول من الشرفة... كان ممدداً على بطنه، والدم الأسود الكثيف يسيل بغزارة من جرحه وكان جسمه ما يزال ينفض.

أُجريَ تحقيق. لم يستطع أحدٌ تفسير سبب الانتحار. أما العمُّ، فلم يخطر بباله البتّة أن شيئاً مشتركاً يمكن أن يكون بين الانتحار والاعتراف الذي أسر به إليه أوجين قبل شهرين.

أكّدت فارفارا ألكسيفنا أنها قد تنبأت دائماً بذلك: (كان يرى ذلك عندما يُناقش).

لا ليز ولا ماري بافلوفنا كانتا تستطيعان أن تفهما كيف وقع ذلك، ولا أن تتبيّنا، بخاصة رأي الأطباء الذين زعموا أنه كان مضطرب الشخصية، نصف مجنون، ما كان بوسعهما أن يقبلا ذلك لأنهما كانتا تعلمان أنه أصح عقلاً من معظم الناس الذين عرفوهم.

وبالفعل، فلو كان أوجين أرتينييف مريضاً نفسياً لكان جميع الرجال مرضى أيضاً، ولكان أشدهم مرضاً بين هؤلاء، أولئك الذي يرون علامات الجنون لدى الآخرين ولا يرونها في أنفسهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

<u>لينك الانضمام الى الجروب – Group Link</u>

<u>لينك القنـــــاة – Link</u>

فهرس..

عن الرواية..

–1–

–2–

–3–

–4–

–5–

–6–

–7–

–8–

–9–

–10–

–11–

–12–

–13–

–14–

–15–

–16–

–17–

–18–

–19–

–20–